الإفتتاحية

■ رئيس التحرير

حينما تقرر استئناف صدور مجلة الجوبة، بدأت الأفكار تترى لتشكيلها من جديد، فبأي صورة ستكون؟ وإلى أي المدارس تنتمي؟ وهل ستحافظ على خطها الرصين، الذي درجت عليه أيام صدورها؟ ..كانت الأفكار تتقافز في أذهاننا حتى استطعنا اصطيادها وترويضها، لتكون بالشكل الذي بين أيدي القراء الآن .

كنا نود الخروج من رتابة المجلات التي تمتلىء بها أرفف المكتبات والمتاجر اليوم. لا ندعي أننا نقدم أنفسنا بديلاً أو منافساً لأحد؛ ولكن لنصل إلى إصدار ثقافي يواصل مسيرة الجوبة ويعززها، وكلنا ثقة في مشاركة شرائح ثقافية كبيرة اليوم، في تشكيل مستقبل هذه المجلة، وإثرائها من خلال متابعتها أو الكتابة فيها.. ولذا كانت خطة التحرير أن تكون المجلة مجلة ثقافية لا تتجزأ.. تتسع لتشمل كافة الإبداعات الإنسانية، حتى وإن لم تكن على القدر نفسه من التوازن على صفحاتها؛ إلا أننا نؤكد أننا سنحرص في كل مرة على أن نحقق ما يلبي حاجتنا جميعا إلى الثقافة والمعرفة والإبداع. والمجلة تراهن على مستقبل الثقافة بالمملكة العربية السعودية والمنطقة التي تصدر منها؛ ولا سيما أنها تطلع من رحم مؤسسة عبد الرحمن السديري الخيرية، التي ما فتئت تعنى بالبعد الثقافي بشكل قلَّ نظيرُه. وإن صدور هذه المجلة من منطقة الجوف يعني إضافة مساحةً ثقافية جديدة تتسع لأبناء الوطن بكل جهاته.

لذا، فإن أمنياتنا في هيئة تحرير المجلة أن تكون منبراً، تتواصل من خلاله أطياف عديدة، من مثقفي الوطن ومبدعيه؛ لتلتقي على ضفاف الجوبة، فكراً ورؤىً تحملُ همَّ الإبداع وهمَّ الفكر وهمَّ الوطن في آنٍ معاً..

سنسعى بكل طاقاتنا، للوصول إلى كافة المبدعين والموهوبين والمهتمين، والى جميع محبي الثقافة والإبداع؛ لمد جسورٍ من التواصل معهم، وخلق حوار فكري وثقافي، من خلال كافة الإبداعات التي ستسعى الجوبة إلى احتضانها ونشرها؛ لتترسّخ ثقافة الحوار في مجتمعنا الغالي؛ ولتكون الجوبة واحدة من أوعية النشر، التي تسهم في نشر الثقافة وتعزيزها ورعاية الإبداع الأدبي.

أثناء إعداد مواد العدد، وجدنا أن كثيراً من القضايا، التي تحفل بها الساحة الثقافية والفكرية في بلادنا، جديرة بأن تخصص لها مجلات ومطبوعات جل صفحاتها، بدءاً من الحوار الفكري، وانتهاء بالأندية الأدبية، والقرارات الجديدة التي حركت سكونها الذي استمر زمناً. ومن حسن الحظ أو الطالع أن واقعنا الثقافي، غنيٌ بالقضايا والهواجس والرؤى والتطلعات، ليس بما يكفي فقط، بل لدرجة أننا وجدنا أنفسنا حيالها على حافة الحيرة: من أيها نبدأ وأي الضفاف نختار ؟!

وعلى الرغم من أهمية طرق هذه القضايا، إلا أن مساحة الصفحات التي ازدحمت بالمواد، والتزامنا بالصدور جعلتنا نؤثر أن يأتي العدد على سجيته، حاملاً معه بعضاً من شهد الإبداع؛ ولنغذ السير قدماً لنلتقي على ضفاف الجوبة في أعدادها القادمة لمتابعة رسالة الجوبة الطموحة.

جاء عدد الجوبة الرابع عشر حافلاً بتغطية الندوة العلمية المهمة التي نظمتها مجلة أدوماتو (الشقيقة الأخرى التي تصدر عن مؤسسة عبدالرحمن السديري الخيرية)، التي عقدت في رحاب المؤسسة بدار الجوف للعلوم، كما يحفل العدد بباقة من المواد الثقافية والإبداعية، التي نرجو أن تؤكد اتساع صفحات الجوبة، بقدر سعة أفق سماء الوطن، التي ستبقى تظللنا بدفئها وحنانها؛ لتشمل كل المبدعين والموهوبين.

وقد حرصنا على وجود عدد من الأسماء الثقافية والإبداعية الرائدة.. فلا تبخلوا علينا بإبداعاتكم ومشاركاتكم، ونحن من جهتنا، سنحاول قدر استطاعتنا الوصول إليكم في كل مكان، لعلنا نخرج في كل عدد وقد حققنا قَـدْرَاً، مما يطمح إليه كثير من المبدعين والمثقفين والناشئين، الذين نأمل أن يعيشوا معنا هذه التجربة، التي تطمح أن تزدان بقرائها ومبدعيها.

إن إصدار مجلة ثقافية اليوم، ليس ترفاً.. وإنما هو محاولة لخلق مزيد من التوازن في بحر أصبح يعج بكافة الألوان، التي تتطلب من كل ذي رأي أن يكون له دور في نشر الذائقة الثقافية قارئاً وكاتباً، والتي تحاول أن تسد حاجة كل العطشى إلى الثقافة الجادة..

إننا ونحن نشهد ولادة الجوبة، من جديد، وإذا كانت المجلة لظروف ما قد توقفت لسنوات؛ فإننا في المقابل نشهد ثراءً في النشاطات التي دأبت مؤسسة عبدالرحمن السديري الخيرية على رعايتها، خلال فترة توقف الجوبة... فهل تأخر المخاض طويلاً لولادة الجوبة في ثوبها الجديد؟ ربما نتفق مع من يقول بذلك؛ بيد أن طموحنا الكبير، في الوفاء لمتطلبات المرحلة، التي نعيشها في وطننا، لا يبرر تأخرنا وحسب، بل يدعو إليه في سبيل انتظار مشروع يتناغم مع معطيات هذه المرحلة.

أهمية كتابات الرحالة الأوروبيين لتاريخ منطقة الجوف المحلي

■ د. عوض البادي

إن الحديث عن أهمية كتابات الرحالة الأوروبيين للتاريخ الحديث لمنطقة الجوف، يستدعي أولاً التطرق إلى شيء من تاريخ المنطقة، لنعرف أهمية ما كتبه أولئك الرحالة عنها، ولنقّدر تلك الأهمية في ضوء السياق العام لتاريخها لا سيما في القرنيين الماضيين. ولا أخالني مجافياً للحقيقة، لو بدأت بالقول أن منطقة الجوف كانت محظوظة، بسبب موقعها المهم، كنقطة عبور لدخول وسط الجزيرة العربية للرحالة الأجانب، الذين سجلوا ما رأوه وسمعوه وفعلوه؛ ليورّثوا لنا معلومات أوليّة، بدونها سيظل تاريخ حقبة مهمة من حقب تاريخها مجهولاً إلى الأبد، لانعدام ثقافة التوثيق والتسجيل بين أبناء المنطقة، وغلبة ثقافة البدأة الشفوية حول تاريخها.

يعود الاستيطان البشري في منطقة الجوف، كما هو معروف، إلى عصور سحيقة في القدم. وتبين الشواهد الأثرية والنقوش القديمة المكتشفة حتى الآن، أن السجل التاريخي للمنطقة يحتوي على فجوات عميقة، تفصل بين عصور و أزمان مختلفة، تجعل من المستحيل تكوين صورة متكاملة حول تاريخها. ولو أخذنا، على سبيل المثال، العهد الأشوري أو الفترة المبكرة من التاريخ الإسلامي، لوجدنا معلومات مهمة عن المنطقة، تسمح بتكوين صورة عنها في تلك المراحل.

أما الفترات التي سبقت الأشوريين، والفترة الممتدة من القرن السابع قبل الميلاد وحتى ظهور الدين الإسلامي، فإننا لا نجد معلومات تسمح بالجزم حول

● باحث وكاتب أكاديمي من أبناء منطقة الجوف.

دراسات

واقع المنطقة في تلك الفترة. وكذلك كانت الحال مع الفترة التي تلت ظهور الإسلام؛ فبينما شهدت المنطقة أحداثاً مهمة في العهد الإسلامي الأول، إلا إنها فجأة خرجت من التاريخ، ولا توجد إلا إشارات قليلة، بين حين و آخر، غير كافية للبناء عليها لكتابة تاريخ ما يزيد عن ألف عام، من القرن الأول وحتى القرن الثاني عشر الهجري. وفي هذا الصدد يمكن قول الشيء نفسه، عن معظم مناطق الجزيرة العربية؛ إذ إن انتقال الخلافة الإسلامية إلى دمشق أولاً وبغداد ثانياً؛ ثم توزعت سلطة الخلافة إلى مراكز أخرى، أفقد الجزيرة العربية أهميتها السياسية على الرغم من استمرار أهميتها الدينية لكافة الدول الإسلامية.

أدت هذه العزلة السياسية إلى فقدان مناطق عدة من الجزيرة العربية ارتباطها الفعلي بالمراكز الحضارية، ولكنها بقيت اسمياً مرتبطة بها. ولم تكن منطقة الجوف استثناء من هذا الوضع، إذ فقدت أهميتها التاريخية السابقة، على الرغم من تبعيتها أسمياً للمراكز الحضارية الإسلامية في دمشق وبغداد والقاهرة وإستانبول. ولكن كل الأدلة القليلة المتوافرة تؤكد بقاءها مركزاً من مراكز التجمّع والاستيطان للقبائل العربية الرحّل، التي تجوب شمالي الجزيرة العربية من جنوبي دمشق شمالاً إلى حائل جنوباً نظراً لموقعها المهم وسط هذه الصحراء الكبرى، ولخصوبة أرضها ووفرة مائها.

وهكذا ظلت المعلومات المتوافرة عن تاريخ قرون من تاريخ المنطقة نادرة جداً، لا تسمح بكتابة حلقات هذا التاريخ، حتى تغير الوضع في وسط الجزيرة العربية، بدءاً من منتصف القرن الثامن عشر الميلادي/ الثاني عشر الهجري، حين بدأت حركة الدعوة الإصلاحية للشيخ محمد بن عبدالوهاب، وقامت الدولة السعودية الأولى.مع قيام هذه الدولة وامتداد نفوذها من قاعدتها نجد إلى شمالي الجزيرة في أخر القرن وتسجيل بعض المؤرخين لهذا الامتداد، بدأت مرحلة جديدة، يمكن الانطلاق من أحداثها، للتأسيس لسجل تاريخي متصل الحلقات لمنطقة الجوف، يغطي جزءاً من تاريخها الحديث.

يعود تاريخ وصول الدولة السعودية الأولى إلى منطقة الجوف ووادي السرحان إلى سنة ١٧٩٣م/ ١٢٠٨هـ، حيث وصلت إلى المنطقة قوة عسكرية، استطاعت أن تخضع بعض بلدان المنطقة. وتشير المصادر التاريخية التي تناولت تلك المرحلة، إلى أن دومة الجندل عاصمة المنطقة كانت منقسمة على ذاتها وكانت تسيطر عليها عائلتان من سكانها. وبعد حصار وقتال، وافقت عائلة آل درع على الخضوع للدولة السعودية، ودفع الزكاة لها. أما العائلة الثانية، وهي عائلة آل سراح فقد استعصت على المهاجمين، ولم توافق على الدخول تحت سلطة الدولة، فتركت وشأنها، واستمرت حرب أهلية لمدة ثماني سنوات، انتهت بخضوع كافة المنطقة للدولة، وتكليف رئيس عائلة ابن درع بإدارتها باسم ابن سعود.

عند هذا الخبر، بدأ وانتهى أمر المنطقة في المصادر التاريخية المكتوبة حول تلك الدولة، وإن كان يمكن استنتاج استمرار تبعية منطقة الجوف للدولة السعودية الأولى حتى نهايتها سنة ١٨١٨م/ ١٢٣٣هـ بغزو خارجي.

قد لا يختلف أمر منطقة الجوف عن أمر مناطق الجزيرة العربية التي كانت تابعة للدولة السعودية الأولى، بعد غياب الدولة المركزية، من حيث عودتها سيرتها الأولى، من التنازع والصراعات الداخلية بين العائلات والقرى والأحياء المختلفة.ولم تتمكن الدولة السعودية الثانية، التي أسسها على أنقاض الدولة الأولى الإمام تركي بن عبدالله بن محمد بن سعود في نجد من مد سيطرتها إلى المنطقة، و بقيت على حالها حتى تأسست أمارة جديدة في حائل، بدءاً من سنة ١٢٥١هـ/١٨٣٥م، على يدي عبدالله بن رشيد بتوليه من الإمام فيصل بن تركي. استطاعت هذه الإمارة الجديدة أن تمد خلال خمسة سنين نفوذها إلى منطقة الجوف وتخضعها

بالكامل لسلطتها. استمرت تبعية منطقة الجوف لهذه الإمارة، عدا فترة قصيرة حاول الأتراك حكمها مباشرة من ولاية دمشق، حتى اعتراها الضعف فاستقلت كإمارة بذاتها بدأ من سنة ١٨٠٩م/١٣٢٧هـ إلى سنة ١٩١٩م/١٣٣٨هـ، ثم استعادت إمارة حائل السيطرة عليها من جديد، وأخيراً انضمامها سنة ١٣٤٠هـ/١٩٢٢م إلى الحكم السعودي بقيادة الملك عبدالعزيز.

قد لا يتجاوز ما هو مكتوب عن تاريخ منطقة الجوف، عبر هذه المراحل سطور قليلة في المصادر التاريخية المحلية. وما هو متاح من أشعار ومن روايات، وهي أشعار وروايات مهمة حول المنطقة وأحداثها، غير كافية لكتابة تاريخ هذه المراحل كسلسلة متصلة الحلقات، علاوة على أن أغلبها غير موثق من الناحية الزمانية، وتوارثته الأجيال شفوياً مع ما يعتريه من زيادة أو نقص، كما أنها لا تبين واقع الأوضاع السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية والسكانية السائدة عبر هذه المراحل.

من هنا، تكتسب كتابات الرحالة الأوروبيين أهمية خاصة لتاريخ عدد من مناطق الجزيرة العربية، ولا سيما المناطق الشمالية منها، لافتقادها لأي مصدر مكتوب آخر حول أوضاعها وظروفها وتركيبتها السكانية وعلاقاتها بمحيطها، خلال الفترة التي جابوا فيها ربوع هذه المناطق.ولا أظن إنني مبالغ، لو قلت أنه بدون ما كتبه هؤلاء الرحالة، لبقي تاريخ منطقة الجوف في مراحله الحديثة مجهولاً، كما هو الحال مع تاريخها الأقدم، ولبقي محصوراً في الخطوط العامة التي ذكرت آنفاً حول تبعيتها لأي من الإمارات التي قامت في وسط الجزيرة العربية.

الرحالة الأوروبيون في منطقة الجوف

يؤرخ دارسو أدب الرحلات الأوروبية إلى الجزيرة العربية بداياتها ببداية القرن السادس عشر الميلادي، منذ رحلة الرحالة الإيطالي لويس فارثيما، إلى مكة والمدينة سنة ١٥٠٣م.إلا أنهم يؤرخون بداية الاكتشاف العلمي الحقيقي للجزيرة العربية برحلة كارستن نيبور، أحد اعضاء البعثة العلمية الدنماركية، التي أرسلها ملك الدنمارك لاكتشاف اليمن سنة ١٧٦١م.كتب هذا الرحالة، وهو الناجي الوحيد من أعضاء البعثة، الذين لقوا حتفهم خلال رحلتهم، وصفاً لرحلته ولمناطق الجزيرة العربية كما أنه نقل معلومات هي الأولى حول ظهور الدعوة الوهابية في نجد إلى أوروبا. وأشار هذا الرحالة إلى منطقة الجوف باسم "جوف السرحان"؛ كمنطقة جغرافية شمالي الجزيرة العربية، وإنها تضم سكاكة ودومة، ولم يورد معلومات أخرى. وعلى خطا هذا الرحالة، ومع مطلع القرن التاسع عشر الميلادي، بدأ الرحالة الأوروبيون بالتوافد إلى مناطق الجزيرة العربية، ولا سيما الحجاز واليمن والخليج، ولكن وسط الجزيرة العربية بقي هدفاً بعيد المنال، ولم يجرؤوا على اختراقه لأسباب مختلفة، ليس أقلها خوفهم من المجهول. وأكثر ما رووه من معلومات حول وسط الجزيرة وأوضاعها في تلك المرحلة، كانوا قد استقوه مما سمعوه في المناطق الأخرى من الجزيرة أو في العراق أو في سورية أو في مصر.

كانت المحاولة الأولى للوصول إلى وسط الجزيرة العربية، عبر منطقة الجوف، قد جرت في سنة ١٨٠٨م/ ١٢٢٣هـ؛ إذ بعث الرحالة الألماني أورليخ سيتزن، الذي كان يقيم في القدس، أحد العرب العاملين معه واسمه يوسف المالكي، برحلة إلى الجوف ليحاول الوصول منها إلى الدرعية وليكتشف الوضع له ليغامر بنفسه، إلا أنه قفل عائداً من الجوف، بعد أن أدرك صعوبة عبور صحراء النفود. ولكن سيتزن ذكر أن يوسف أبلغه أن بلدة الجوف تابعة لنجد، وتضم عدة أحياء، عرف سبعة منها لكنه لم يتذكر إلا أسماء ثلاث منها: سوق الدرع؛ وسوق السعيديين؛وسوق عين أم سالم. و أن المسافات قصيرة بين هذه الأحياء، والمنازل الطينية لهذه الأحياء مقامة إلى حد كبير على شكل دائري له مدخل واحد. وخلف كل منزل بستان نخيل صغير. ووسط هذه الأحياء يقوم بناء حجري قديم. وفيها

برج رباعي الشكل مبني بحجارة كبيرة رباعية الأبعاد، قمته مستدقة، ويشبه المسلة، وهو عالي الارتفاع إذ يزيد ارتفاعه عن ضعف أو ثلاثة أضعاف أعلى منارة في البلدة.

ولم تسجل أية محاولة جديدة لأي رحالة أوروبي لزيارة مناطق شمالي ووسط الجزيرة العربية إلا في أربعينيات القرن التاسع عشر الميلادي/ستينيات القرن الثالث عشر الهجري، عندما بدأ التركيز على هذه المناطق؛ لأنها كانت تموج بأحداث وتطورات سياسية مختلفة؛ ولكونها الوحيدة من بين مناطق الجزيرة، التي لم يتيسر للرحالة الأوائل زيارتها و معرفة جغرافيتها وواقع أوضاعها. وبدأت موجة جديدة من الرحالة الساعين لاختراق هذه المنطقة، أسوة بالمناطق الأخرى، وسد الفجوة في معلوماتهم حولها جغرافياً ودينياً وسياسياً واجتماعياً وسكانياً وثقافياً. ويمكننا التأريخ لبدء هذه الموجة الجديدة، برحلات الرحالة والمستشرق الفنلندي جورج أوغست والن، الذي قام برحلتين: الأولى سنة ١٨٤٥م/١٢٦١هـ؛ والثانية ١٨٤٨م/١٢٦٤هـ إلى مناطق شمالي وسط وشمال غربي الجزيرة العربية.

مع "والن" كانت البداية الحقيقية لعلاقة الرحالة الأوروبيون بمنطقة الجوف، واستمرت تلك العلاقة حتى سنة ١٩٢٢م/١٣٤٠هـ.وخلال هذه الفترة الممتدة من سنة ١٨٤٥م/١٢٦١هـ- ١٩٢٢م/١٣٤٠هـ، زار منطقة الجوف خمسة عشر رحالة أوروبياً،ثلاثة منهم قاموا بأكثر من رحلة، وهؤلاء جميعاً كتبوا عن رحلاتهم في منطقة الجوف وضمّنوا ما كتبوه معلومات مختلفة حول أوضاع المنطقة وقت، زياراتهم وتوسع بعضهم في وصف كثير من المواضيع و القضايا.

وإذ سبق لي أن قدّمت لهؤلاء الرحالة معظم نصوصهم المتعلقة بالمنطقة مترجمة إلى اللغة العربية في كتاب: **الرحالة الأوروبيون في شمال الجزيرة العربية: منطقة الجوف ووادي السرحان ١٨٤٥م١٩٢٢-م**؛ فإنني لا أرى حاجة لتكرار ما قالوه حولها، حيث يمكن الإطلاع على ذلك. ولكن سأعرض لأهم ما أوردوه، حول المنطقة وأبيّن أهميته العلمية، لكتابة تاريخها الحديث بتسلسل وترابط في حلقاته. ولكن قبل البدء بالحديث حول موضوعنا أرى أنه لا بد من الإشارة أولاً إلى أن المنطقة لم تكن مقصداً بحد ذاتها لأغلبية الرحالة الذين زاروها وكتبوا عنها، بل كانت محطة في طريقهم جنوباً إلى نجد أو شمالاً إلى سورية. وثانياً إلى أن ما كتبوه، كان موجهاً في الأصل لقرائهم بلغاتهم، ومعلوماتهم حولنا وحول بلادنا كانت لتعريف أولئك القراء بها، ولم يقصدوا أن يؤرخوا تاريخنا أو يتصوروا أنها ستكون مصدراً من مصادره.

كان الرحالة الفنلندي جورج أوغست والن، أول رحالة أوروبي يزور منطقة الجوف ويكتب عنها. كان والن رحالة علم تؤكد كافة المعلومات المتوافرة حوله وحول رحلاته وتمويلها أن العلم كان هدفه وأن اللغة والثقافة العربية وولعه بهما كانا دافعاً له للقيام برحلاته. بدأ والن رحلاته إلى الجزيرة العربية، بعد أن حصل على منحة علمية من جامعة هلسنكي، لمدة خمسة أعوام، لاكتشاف مناطق الجزيرة العربية، غير المكتشفة حينها، ولتتبع تطور اللغة العربية وعلاقتها باللغة الحميرية؛ وليدرس الفرق بين اللغة العربية الفصحى واللهجات العربية العامية. وقبل أن يبدأ رحلته في الجزيرة العربية مكث في القاهرة ما يقارب السنتين؛ ليتقن اللغة العربية ويتحدثها كأهلها وليدرس العلوم الشرعية بوصفه طالب علم من بخارى، وكان يسمي نفسه في القاهرة ولي.بعد أنه نجح في تقّمص شخصية شيخ بخاري، وأن أحداً لا يمكن أن يظن أنه أوروبي أو غير مسلم، أنطلق في رحلته بعد أن تسمى باسم عبد الولي ليبدو الاسم أكثر قبولاً عند الوهابيين،حسب نصيحة بعض أصدقائه، وكانت الجوف محطته الأول. أقام والن في دومة الجندل، قاعدة منطقة الجوف في حينه، حوالي ثلاثة شهور، من يوم ٢٥ مايو إلى ٣٠ أغسطس ١٨٤٥م/١٢٦١هـ.

تناول والن، فيما كتبه عن إقامته في الجوف،

تاريخ المنطقة والروايات التاريخية التي تناولتها المصادر التاريخية، وجغرافية وادي السرحان. واستعرض أحوالها الاجتماعية والسياسية، وطبيعة التحالفات السائدة بين سكان عاصمتها دومة الجندل. وذكر أن دومة الجندل تتكون من اثني عشر حياً، وأن أهل الجوف يردون جذورهم إلى قبائل وقرى عربية مختلفة. وإن ملامحهم وأسلوب عيشهم وعاداتهم وطريقة هندسة منازلهم، وطريقة زراعتهم تغلب عليها السمة السورية. وأن سكان بعض أحيائها يبدون متأخرين في الهجرة إليها. وأن السكان يتمتعون بعلاقات نشطة مع سورية أكثر مما هو مع العراق. وإن التجار المتجولون الذين يزورون الجوف أحياناً يأتون من سورية، على عكس ما هو عليه الحال في نجد، حيث يندر أن تقابل أحداً منهم. وأن أهل الجوف يدفعون الزكاة إلى شيخ شمر في حائل، وهناك خمس من شيوخ الأحياء مكلفين بجمع الزكاة من بلدان المنطقة، وأن ليس لابن رشيد أمير حائل نائب في الجوف، وكل حي خاضع لشيخه. كما يذكر أن كل حي خاضع لإحدى القبائل البدوية المجاورة حيث يدفعون "خاوة"، وهي عادة ما تكون كميات محدودة من التمر. وأنَّ القبائل الرئيسة التي تحصل على هذه الخاوة الشرارات والجلاس من الرولة.

وذكر والن، أن سكاكا تضم أربعة أحياء سكنية هي: العمران، والسهيان، والحركان، والفياض؛ وتضم حوالي أربع مئة عائلة. وأن قصر الطوير يضم عشرة عائلات، وأن قارا تضم حوالي عشرين عائلة.وجميع هذه الأماكن تابعة لحكم شيخ شمر، وتدفع له الزكاة التي يجمعها الرجال أنفسهم المكلفين بجمعها في العاصمة دومة الجندل.

ووصف والن أهل الجوف بأنهم من أكرم العرب الذين عرفهم، وأنهم كانوا على قدر من التعليم، وأن الشقاق والنزاع والتمرد سمة طاغية عندهم.

إن ما كتبه حول رحلته إلى الجوف، جاء في سياق محاضرة علمية كان قد كتبها لإلقائها في لندن، حول كامل رحلته الأولى إلى الجزيرة العربية، لذلك غابت تفاصيل كثيرة عنها كان يخطط لنشرها في مرحلة لاحقة، وبعد أن يكمل كل الرحلات التي كان ينوي القيام بها داخل الجزيرة العربية. ولكن القدر لم يمهله فقد توفي فجأة سنة ١٨٥٢م، وهو يعد لرحلة جديدة بعد أن عين بروفسوراً للدراسات الشرقية في جامعة هلسنكي، وكان في الواحدة والأربعين من عمره.

ترك والن الكثير من الأوراق الخاصة والمذكرات التي تحتوي على تفاصيل كثيرة، لو أُتيح له إعدادها للنشر قبل وفاته، لعُدّ من أعظم الرحالة الأوروبيون الذين وطأت أقدامهم الجزيرة العربية.

وكما ذكر آنفاً، كان من أهداف رحلته معرفة الفروق بين اللغة العربية الفصحى واللهجات العامية، لذلك كان يجمع الأشعار والقصائد خلال رحلته، ويلتقي الشعراء ليسمع منهم قصائدهم مباشرة، ليضبطها لفظاً وشكلاً، لتسهل له دراستها لاحقاً. و يظهر لي أنه وجد في الجوف شيئاً من ضالته، فأطال المقام بين أهلها لكرمهم، وكثرة الشعراء من بينهم. لذلك جمع فيها قصائد كثيرة لعدد من شعراء الجوف وغيرهم من شعراء البادية، التي يحفظها شعراء الجوف. وقد قام والن قبل وفاته، بإعداد بعض هذه القصائد للنشر، وقد نشرت بعد وفاته بسنتين باللغة الألمانية. كانت القصائد التي أعدها والن للنشر، قصائد ذات دلالات مهمة من النواحي: السياسية والاجتماعية والثقافية والتاريخية.وتنبع أهمية هذه القصائد من تسجيلها لأحداث مهمة من أحداث تاريخ المنطقة، ومن المعلومات التي قدمها والن، حول تلك الأحداث والأشخاص وهو يفسّر معانيها اللغوية.

من القصائد التي قدمها والن في دراساته قصيدة نعتز بها جميعاً في الجوف، وتتوارثها الأجيال، ولكننا جميعاً نختلف حول تاريخها و قائلها ومناسبتها وهي القصيدة المعروفة (الشكل ١).

وحول هذه القصيدة ذكر والن:" سمعت هذه الأبيات من سلمان، وهو شاعر من حي خذما،

Probe aus einer Anthologie neuarabischer Gesänge, in der Wüste gesammelt

von

G. A. Wallin.

(Fortsetzung von Bd. VI, S. 190—218.)

قال راع الجوف وهو راحل الى الشام

يا ما حلا والشمس يبدى شعقها * تحديرة الزرقا الى نقرة الجوف

يسقى بها غيط ظليل ورقها * يظهر نماها للمساكين والضعوف

وان جوا اهل العيرات تومى علقها * متبشرين بالغدا حقة الشوف

كم حايل للضيف يرمى شنقها * ياكل حثث ما هو على الزاد مردوف

اخير من البلقع وصاف مرقها * اللى لحمهم بس ذرعان وكتوف

Transscription.

(1) ià mà ḥalà wa-lshams^{u} iibdì shaʿaḳah
tahdìrát^{i}-lzarḳà ilà nuḳrát^{i}-lgawf

(2) iusḳà bihà ṛeiṭin ḍhalìlin waraḳah
iuḍhhar nemàhà lilmesàkîn^{a} wa-lḍʿûf

(3) wau gaw hal^{i}-lʿìràt^{i} tùmì ʿalaḳah
mutbashshirînin bilṛadà ḥaḳḳát^{i}-lshawf

(4) kam ḥàilin lilḍeif^{i} iarmî shanaḳah
iaʾkul ḥathath mà hû ʿalà-lzàd^{i} mardûf

(5) akheir min albalḳaʿ wa ṣàfin maraḳah
illì laḥamhum bess^{i} dhirʿàn^{i} wa-ktûf.

Uebersetzung.

(1) O wie schön ist es, im ersten Glanze der Morgensonne von Zarḳà nach dem Gawf-Thale hinunter zu reisen, (2) wo mit schattigem Laube prangende Gärten gewässert werden, aus denen man den Armen und Nothleidenden die Früchte freigebig darreicht; (3) und wenn Karawanen da ankommen, deren Vorräthe zu Ende gehen, die sich auf das sie beim ersten Morgenlichte erwartende Frühstück freuen: (4) wie viele Schafe werden da dem Gaste geschlachtet! In Ruhe, ohne beim Essen durch Zudringlichkeit

● الشكل (١)

وهي جزء من قصيدة طويلة، تمتدح الجوف وتصف العلاقات المختلفة بين أحيائها؛ و أنني برغم الجهد الكبير الذي بذلته لأسجل كامل القصيدة التي يعتز بها أهل الجوف كثيراً ويرددونها، إلا أنني فشلت في ذلك وهذه الأبيات الخمسة هي كل ما كان يحفظها أصدقائي في خذما. وقائلها شاب من الجوف، نسيت اسمه، كان قد هاجر مع والديه إلى مدينة الكرك، وقد جاء في زيارة قصيرة إلى مسقط رأسه خلال إقامتي في الجوف، وتردد كثيراً رغم إلحاحي عليه بأن يذكرها لي. والقصيدة عموماً غير بعيدة عن الواقع لكرم أهلها واريحيتهم ولتمورها الطيبة ومياهها العذبة الجارية، وطقسها الرائع. وهي بلدة محبوبة تدور حولها قصائد كثيرة، وان من يزورها مرة فلابد أن يعود إليها."

وهذا ما أخذناه مما ذكره والن وزمن نقله لها، نجد أنها تتعلق بأحداث تسبق الأحداث التي يوردها الكتاب والباحثين والناس كمناسبة لها.

وحول الصراعات بين الأحياء المختلفة في دومة الجندل أورد والن قصيدتين ووضح مناسبتهما بمعلومات تاريخية مهمة. القصيدة الأولى من نظم مساعد العبد، وهو أحد سكان حي خذما، ويناجي بها داره (الشكل ٢).

ما أورده والن حول هذه القصيدة ومناسبتها يُظهران طبيعة الأوضاع التي كانت سائدة في البلدة؛ إذ ذكر والن:" كانت أحياء الجوف قبل إخضاع شيخ شمر عبدالله ابن رشيد سنة ١٨٤٠م/١٢٥٦هـ لها، تعيش حياة نزاع، والخلافات فيما بينها لا تنقطع، وكانت السرقات والنهب والقتل من مجريات الحياة اليومية. وكان أهل البلدة منقسمين في ولائهم بين شيخين من شيوخ الأحياء الكبيرة الدرع والسراح. وكانت الحركة بين الأحياء خطرة جداً، فلا يأمن الأفراد أو المجموعات التحرك حتى إلى بساتينهم، فقد ينقض عليهم أعدائهم دونما سابق إنذار. وكان النموذج الأوضح لمثل هذه الظروف يتجلى فيما كان يسود من علاقات بين الحيين المتجاورين خذما والدلهمية.كانت دار مساعد تقع عند طرف حي خذما، وكان موقعها مناسباً لانطلاق الهجمات على العابرين إلى حي الدلهمية؛ لذلك اتخذ سكان الدلهمية قراراً بتدمير تلك الدار، ولكن سر قرارهم عرف فتشاور مساعد مع أصدقائه فشاروا عليه بان يرحل، لكنه لم يأخذ بالمشورة وقرر الصمود في داره.

يذكر والن أن قصيدة مساعد قوبلت بالترحاب، وانتشر خبرها خلال فترة قصيرة، وصارت تغنى على الربابة في كل المنطقة والصحاري المجاورة، ويتغنى بها الناس. وذكر أنه سمعها تغنى عدة مرات من قبل أشخاص مختلفين، وذهب لمقابلة مساعد نفسه، وطلب منه تمليتها عليها وقد كتبها بمساعدة الخطيب في خذما.

أما القصيدة الثانية، وهي قصيدة مهمة وذات علاقة بقصيدة مساعد السابقة، إذ تؤرخ لكيفية خضوع الجوف لإمارة ابن رشيد وأسبابها. وكان قائلها الشاعر سالم العوض وهو من حي خذما. وقد أورد والن مناسبة القصيدة بقوله:"أدى العداء المستحكم بين حيي خذما والدلهمية إلى وقوع حرب بينهما. وكانت أسباب الحرب المباشرة، هو أن سكان حي الدلهمية قد دعوا أحد عشر شاباً من شباب حي خذما بزعم رغبتهم بإنهاء العداوة القديمة بينهم، وإجراء مصالحة بين الحيين.ذهب شباب خذما بكل ثقة إلى مضيفهم وسلموا أسلحتهم لمضيفيهم أثناء المأدبة، ولكن مضيفيهم غدروا بهم وسقط أربعة قتلى وهرب ثلاثة واحتفظوا بالأربعة الباقين رهائن. وكان من بين القتلى ابنٌ لمساعد. ولأنَّ أهل الدلهمية كانوا مدعومين من قبل حلفائهم السراح، فقد اشترطوا على سكان خذما دفع فدية وأن يرحل أهل الجرعاوي وهم حلفاء لأهل خذما من حيهم، ذي الموقع الممتاز، والذي ترعى حوله قطعان أغنام السراح.

قبل أهل خذما الشروط لإنقاذ أرواح رهائنهم،

ZDMG 5/1851

Probe aus einer Anthologie neuarabischer Gesänge, in der Wüste gesammelt

von

G. A. Wallin *).

قال مساعد العبد مخاطبا لداره

يا دار والله لو رادوك ما نعطيك * اكود مارد نازل للجزيره
من يوم انا غيبة وانا راب بيك * واليوم ما اخليك ولا صار ضيره
يحرم على قض العدو من مبانيك * ما طول كفى تحترف بالذخيره
والقلب ما يرجع لرجال معاديك * ومودتك يا دار عندى كثيره
يا دار ما لوم العدو لو حكى فيك * لومك على ان طعت حكى المشيره
وربا عتك يوم الملاقى تحاشيك * وتصير جدرانك سواة السقيره
وان ساعف البارى وهبت لاعاليك * ان قربوا تبدى لهم كل خبره
بعيوننا رب السموات منزهيك * وستار ما تطلب المعانيز جهيره

ثم ردت الدار على راعيها

يا العشر عن برد الهبايب اذريك * ويا شين عندك لا تضيع الجميله
ذريت ابوك ومن بغى من دوانيك * وحتى انت بى واخذ لك حليله
واصدق بنا والصدق عندى ينجيك * والله لو حط البلاوى يزيلها
واما انت ما عذرك حذى الموت غاشيك * موتك ولا قضى بليا دليله

---

*) Wir freuen uns, mit diesem Aufsatze die Reihe der wissenschaftlichen Mittheilungen zu eröffnen, welche der nun aus Arabien zurückgekehrte Verf. (s. Ztschr. III, S. 350, IV, S. 393) in seinem Begleitungsschreiben, London d. 25. März 1850, ausdrücklich ankündigt. „Es ist diess", bemerkt er nämlich, „eine kleine Probe der *neuarabischen Gesänge*, die ich in der Wüste gesammelt habe. Sollte dieselbe Interesse erregen, so würde ich gern mehrere nachfolgen lassen, zugleich als Belege für *die jetzt in Negd und bei den Beduinen gebräuchliche Sprache*, über welche ich bald nähere Auskunft zu geben hoffe. Die Grundsätze meiner Transscription des Arabischen habe ich nicht besonders dargelegt, weil ich auch darüber mich bald ausführlicher zu erklären gedenke." D. Red.

● الشكل (٢)

وجمعوا الفدية وأقنعوا أهل الجرعاوي وكانوا ثماني عائلات بالانتقال إلى حي خذما. وتم إطلاق سراح الرهائن لكن أهل الدلهمية لم يكتفوا بذلك، بل دمروا حي الجرعاوي تدميراً كاملاً. كان أهل الجرعاوي من جبة ويعودون بنسبهم إلى شمر لذلك طلبوا مساعدة عبدالله بن رشيد؛ فأرسل أخاه عبيد بقوة من شمر لينهي النزاعات السائدة في الجوف، ولا سيما بين حيي خذما والدلهمية. فرض ابن رشيد شروطاً على أهل الدلهمية منها إعادة مبلغ الفدية ودفع الدية عن قتلى خذما. وقد تم ذلك، ولكن أهل الدلهمية أضطروا للرحيل إلى حي السراح فدمر حيهم بالطريقة نفسها، التي دمروا فيها حي الجرعاوي. وخّير ابن رشيد أهل خذما بين الاحتفاظ بمبلغ الفدية وبناء حي الجرعاوي أو إعطاء المبلغ لأهل الجرعاوي لبناء حيهم بأنفسهم، فاختار أهل خذما الخيار الأول. ويذكر والن أنه عند مغادرته للجوف كان حي الجرعاوي قد أُعيد بناؤه، وأنّ حي الدلهمية كان على حاله من الدمار. وقد أورد والن نص القصيدة (الشكل ٣).

ومن القصائد الأخرى التي جمعها والن وتمكن من إعدادها للنشر، قصيدتين لشاعرين صديقين كهلين، هاما في حب فتاة اسمها سوير وكان كل منهما يريد الزواج منها، ولكنهما لم يكونا يعرفا نوايا بعضهما. كانت الفتاة قريبة لأحدهما وهو سلمان من أهل خذما، لذلك كان الأخر وأسمه سكران من أهل الرحيبيين يتوسط بسلمان للزواج من قريبته ولكنه لم يفعل شيئاً لأنه يريدها لنفسه.

قد لا تكون قصيدتاهما مهمتين، بحد ذاتهما، على الرغم من أبعادهما الاجتماعية المهمة، لكن والن يزودنا بمعلومات حول الشاعرين. و ذكر أن سلمان شاعر من خذما وكان قد تجاوز الستين من عمره، وعلى قدر من التعليم، لذلك اختاره أهل علاج ليكون خطيباً في مسجدهم. وكان مغرماً بجمع الأشعار بقدر ما هو شاعر بنفسه.وأن نموذجه الشاعر المعروف "نمر بن عدوان"، و أنه يقتفي أثره ويحفظ له أشعاراً كثيرة. وأنه أكد له أن عنده صندوق من القصائد التي كتبها وجمعها. وقد خط بيده قصيدتين لنمر بن عدوان أعدهما والن ضمن القصائد المعدة للنشر.

أما الشاعر الآخر سكران، فقد قال عنه والن أنه من سكان حي الرحيبيين وإنه أحد أشهر الشعراء في شمال الجزيرة العربية رغم أنه أمي، وكان يحفظ كثيراً من الأشعار. وذكر أنه شاعر مديح، إذ يجول بين القبائل يمدح شيوخها، و أنه قد قابله في الجوف وفي حائل وجلس معه ساعات، ليستمع إلى قصائده. وأنه كان يذهب سنوياً إلى حائل مع جامعي الزكاة، وليمدح ابن رشيد الذي كان يكرمه.

علاوة على هذه القصائد لهؤلاء الشعراء، توجد قصائد أخرى لشعراء آخرين من الجوف، منهم الشاعر طعمه الجباب، لكن والن لم يتمكن من إكمال دراسته لكل القصائد التي جمعها، وبقيت القصائد محفوظة ضمن أوراقه الخاصة الموجودة في مكتبة جامعة هلسنكي.

شكل ماكتبه ونشره والن حول الجوف، خلفية مهمة حول أوضاع المنطقة وسكانها، استفاد منها الرحالة الذين تبعوه، ولكن لم يقتف أثره أحد، إلا بعد ستة عشر عاماً إذ قام الرحالة الإنجليزي وليم جيفورد بلغريف بزيارة الجوف والإقامة بها لمدة ثمانية عشر يوماً خلال سنة ١٩٦٢م/١٢٧٨، وكان في طريقه إلى وسط نجد.كان هذا الرحالة في مهمة سرية، كلف بها من إمبراطور فرنسا نابليون الثالث؛ لدراسة أوضاع الجزيرة العربية، وكان متخفياً بشخصية طبيب من سورية.

كتب هذا الرحالة حول تجربة إقامته في الجوف، ولكن ما كتبه كان في معظمه انطباعات أكثر منه معلومات. ولكن إذا ما ربطنا ما كتبه حول الجوف بما كتبه والن نستطيع أن ندرك مدى التغير الذي حصل في منطقة الجوف خلال الستة عشر عاماً الفاصلة بين الرحلتين. فحكم حائل للمنطقة أصبح حكماً مباشراً وكان للأمير ابن رشيد نائب مقيم. وهذا الاستنتاج مهم، لأنه يسمح لنا بتحديد الإطار

10 Wallin, Probe aus einer Anthologie neuarab. Gesänge,

das alte أسفال in der Bedeutung von Nachkommen und Verwandten im Allgemeinen.

Wâkhidin (واخدٍ). Die Tanwin-Endung in geht in der jetzigen Beduinen-Sprache sowohl als beim Ḳorân-Recitiren der ägyptischen Sheikhs immer in das folgende Lâm über, und so wird hier ausgesprochen wâkhidillak, mit einem vibrirenden Nasal-Laut [1]). Das Hamzé der regelmässigen Form آخذ wird mit einem Wâw verwechselt, wie im Allgemeinen die modernen Araber das Hamzé gern auf diese oder jene Art umgehen. Anstatt أين z. B. sagen die Beduinen und die Einwohner von Syrien und 'Irâḳ immer وين wein, und die Aegypter فين fein.

Ḥalîlé حليلة ist in der Wüste gewöhnlich für Braut und Weib. Das Wort ḥalâl حلال wird übrigens immer gebraucht in der Bedeutung von Eigenthum, von welcher Beschaffenheit es auch sei. Man sagt حلالي oder im Deminutiv حُلَيِّلاتي ḥaleyilâti für: meine Kameele, mein Vieh, mein Haus, meine Kinder, mein Weib. Wenn man einen Vater nach dem Namen oder dem Alter seines Kindes fragt, fängt er die Antwort immer mit حلال لك (ḥalâlillek) an, in demselben Sinne wie die Syrer sagen عبدك.

Alṣidḳ (الصدق) wird von den Beduinen Negd's gewöhnlich aṣṣuduts ausgesprochen. Die Buchstaben ق und ك lauten namentlich bei ihnen immer etwa wie ts oder ds, zuweilen wie tsch oder das englische ch [2]). Wo ferner zwei schwerer auszusprechende Consonanten zusammentreffen, von welchen in der alten Sprache nur der erste einen Vocal hat, wie in baḥr بحر, geben die jetzigen Beduinen auch dem zweiten Consonanten einen passenden Vocal und sagen z. B. baḥar. Uebrigens wird das Wort nicht allein von Wahrheit in Worten, sondern auch von Redlichkeit und Biederkeit in Handlungen gebraucht.

Jazilah (يزلها). Das Masc.- und Femin.-Suffix wird von den Beduinen gewöhnlich auf gleiche Weise ausgesprochen. Man sagt z. B. ḳatalah sowohl für قتله als für قتلها, und darum reimt jenes Suffix hier, wie in mehreren der modernen Gesänge, die ich unter den Beduinen gesammelt, mit der Femin.-Endung ة.

---

1) Also insofern gegen die Regel der alten Aussprache, welche bei ر und ل ein ادغام بلا غنّة fordert; s. de Sacy's Gramm. 2. Ausg. I. S. 23. D. Red.

2) Diess dient zur Vervollständigung dessen, was *Niebuhr* in der Beschreibung von Arabien, S. 83, und *E. Smith* in Robinson's Palästina, deutsche Uebers. Bd. III, S. 842, über die Zerquetschung jener Gaumenlaute in andern Gegenden berichten. D. Red.

in der Wüste gesammelt.

Ḥadhâ (حذى) wird in der Wüste oft als eine Partikel in der Bedeutung von غير oder الا, doch auch in der alten Bedeutung von gegenüber gebraucht. Unter den Stadt-Arabern erinnere ich mich nicht es anderswo als in 'Irâḳ gehört zu haben, wo im Allgemeinen ein Dialekt gesprochen wird, welcher der alten und der jetzigen Beduinen-Sprache am nächsten kommt.

Belaya (بليّا) ist eine Deminutiv-Form von بلا, wie im Allgemeinen die neuere Sprache kürzere Wörter der alten zu verlängern und längere grammatikalische Formen derselben zu verkürzen liebt.

Delîlé (دليلة) eigentlich Beweis, nachher Grund und Ursache.

قال سالم العوص

يا راكب من عندنا فوق عرماس * يشدا ظليم شالع الزول زايل
مثل المحالة يوم ترخا بالامراس * و عليه من يدّى علوم الصمايل
يلفى مساعد سفرة حين الادماس * قل الكيف ذياب وزان بدع المثايل
فان كان لك عن لده القوم حراس * جأت منوتك شفنا عليهم نهايل
ترى ديرة البايق حرقناها لاساس * بطفر شيخ ماض له فعايل
ومناحل دقت ولا بهن اوناس * و شرس غدوا به كاسبين نفايل
من فعل اخو نورة كما وصف قرناس * حر تدلى من شفا جال حايل
خبّط بكفه ورجف الجوف يا ناس * وشهر على داره رفيع الحمايل
كم طوّع من واحد قاسى الراس * وبالسيف طاعت له صفوف القبايل
وان قطبوا قب الحوافر بالالباس * وركبوا على قب الامهار الاصايل
يثني جواده يمر اوباق يبلس * يضرب بحد السيف ما هو مسايل
وان قلطوا بين القبيلين متراس * والدم من بين القبيلين سايل
ياخذ على خيل القبيلين مرواس * وليا اكتنى باخته تقوطر دبايل
يا ما قطع من عنق وراس * بلقوات بقع يودح الراس مايل
نزه الشوارب ما يجى درب الادناس * دايمت له الحضران واولاد وايل
وعبيد اللى مثل مدموج الامراس * اللى لسيفه بالمعادى فصايل
اخوان نورة متعبين كل محماس * وعدوهم لازما يجيهم بحايل
وصلّوا على السيد عدد رمل الطعاس * والا عدد ما زال بالعين زايل

● الشكل (٣)

الزمني لأحداث مهمة، يتحدث عنها أهل المنطقة دون تحديد زمن حدوثها.

وهو لم يختلف عن والن بوصف أهل الجوف بالكرم والشجاعة وقابليتهم للتمسك بنواصي التقدم إذا ما اتيحت الفرصة.

بعد هذا الرحالة بسنتين، زار الجوف الرحالة الإيطالي كارلو غوارماني، متنكراً بشخصية مسلم من تركيا. ولم يمكث فيها إلا عدة أيام، إذ كان في طريقه إلى سورية بعد انتهاء رحلته التي كانت بهدف شراء خيول عربية أصيلة.و حسب ما ذكر فإنه قد سبق و زار الجوف سنة ١٨٥١م/١٢٦٨هـ، لكنه لم يذكر أية تفاصيل حول رحلته الأولى هذه. ذكر غوارماني الجوف باسم جوف العمرو، وعدد أحياءها وقراها وقدر عدد سكانها بستة آلاف نسمة. قدم غوارماني معلومات مهمة تتعلق بتاريخ حدوث تمرد حطاب بن سراح في الجوف، وحرب ابن رشيد معه لإخضاع الجوف النهائي لحكم ابن رشيد المباشر لها. و ذكر أن هذا التمرد قد حصل سنة ١٨٥٣م/١٢٧٠هـ وأن حطاب كان وقت زيارته مسجوناً في حائل. هذا وقد ذكر بلغريف وهو يتحدث عن زيارته إلى حائل بأنه رأى شخصين، أحدهما من زعماء الجوف، بقيودهما في قهوة ابن رشيد إذ كان يسمح لهما بتناول القهوة فيها وهما بقيودهما. وحيث أن زيارة بلغريف كانت قبل غوارماني بسنتين، فقد يكون حطاب هو من رآه بلغريف في حائل.

بعد هذا الرحالة لم يزر الجوف أي رحالة أوروبي حتى سنة ١٨٧٩م/١٢٩٥هـ، إذ عبر منطقة

الجوف الرحالة الإنجليزي ويلفريد بلغريف و زوجته الليدي آن بلنت، وهما في طريقهما إلى حائل بهدف شراء خيل عربية أصيلة. وقد نشرت الليدي آن وصفاً لرحلتها، التي تتبع أهميتها أنها أول رحلة بعد انقطاع الرحالة الأوربيون لمدة خمسة عشر عاماً، لذلك يستنتج من وصفها التغيرات الإدارية التي حدثت في المنطقة خلال هذه الفترة الطويلة. فقدمت لنا شخصية نائب أمير حائل في المنطقة جوهر. وأشارت إلى محاولة الأتراك السيطرة المباشرة على المنطقة، والى محسن ابن درع أحد الشيوخ الرئيسين في الجوف الذي لم يكن راضياً عن التحولات السياسية في المنطقة، لكنه مستسلم للوضع لأن ابن رشيد يحتفظ بابنه في حائل رهينة لضمان استمرار ولاء حي الدرع.وتتبع أهمية ما كتبته الليدي آن بلنت أيضاً، من أنها زارت ووصفت البلدات الأخرى في منطقة الجوف وصفاً مباشراً. فقد وصفت بلدة كاف، و بلدة سكاكا، وهي البلدة الرئيسة الثانية في المنطقة وقتها وقدمت وصفاً مباشراً لهما. وقد ذكرت أن سكاكا أكبر من دومة الجندل، وفيها حوالي سبع مئة منزل، ونخيلها ضعف نخيل دومة الجندل، وتشمخ فوق قمة مرتفع من مرتفعاتها قلعة قديمة (قلعة زعبل).وأن بيوتها أكثر تنظيماً وأحدث، وليست خربة مثل ما هو عليه الحال في دومة الجندل.

في العام التالي، قام الرحالة الفرنسي تشارلز هوبر بزيارة إلى الجوف، وكان أيضاً في طريقه إلى حائل، وعدد أحيائها ووصف بعض التغيرات فيها وفي اسمائها، كما عدّد قراها، وقدر سكانها بما لا يزيد عن اثنا عشر ألف نسمة.كما أنه أشار إلى حرب ١٨٥٣م/١٢٧٠هـ، والحصار الذي سبقها واستخدام قوات حائل للمدافع، لكسر مقاومة إهل الجوف، وأشار إلى أنه رأى أثار الدمار بنفسه.

وقد عاد هذا الرحالة إلى الجوف مرة أخرى، وكان في طريقه إلى حائل أيضاً عام ١٨٨٣م/١٣٠٠هـ. لم يتسن لهوبر كتابة مذكراته أو تقديم دراسات حول مشاهداته وانطباعاته إذ قتل عام ١٩٨٤م، على يد أحد مرافقيه بقرب رابغ، وهو في طريقه عائداً إلى حائل من زيارة قام بها إلى جدة. وهنا تجدر الإشارة إلى أن هوبر جمع في مخطوط، وهو غير منشور، قصائد عبيد ابن رشيد، ومنها قصائد خاصة بأوضاع المنطقة وقصائد أخرى متبادلة مع شعرائها. ومن هذه القصائد قصائد تتعلق بظروف سيطرة إمارة حائل على المنطقة، ومنها قصيدتان متبادلتان بين غالب بن حطاب السراح وناصر بن قادر، حول طبيعة ما كانت تموج به المنطقة من احداث. والقصيدتان فيهما اختلاف عما يردد منهما بين الناس. ولا يتسع المجال هنا لذكرهما كما وردا في المخطوطة.

رافق هوبر في رحلته الأخيرة الرحالة والمستشرق الألماني يوليوس أويتنغ، الذي كتب حول رحلته ورسم معالم البلدة كقصر مارد وقصر خزام ورسم شخصية جوهر. ولكن اهم ما أورده هو قصة المحاولة التركية لحكم الجوف مباشرة وربطها بولاية دمشق، نقلاً عن أحد المشاركين فيها.وقد حدد تاريخها بسنة ١٨٧٠م/١٢٨٦هـ.

بعد أويتنغ زار الجوف الرحالة البارون إدوارد نولده، وهو من لاتفيا، ومن أصل ألماني ويعمل لحساب روسيا. كان نولده حينما زار الجوف يقوم بمهمة سياسية لدراسة أوضاع وسط الجزيرة العربية، ومقابلة محمد ابن رشيد. لم يذكر نولده شيئاً كثيراً عن الجوف، إلا أنه أشار إلى أهمية موقعها، وقدر عدد سكانها ما بين ١٠٠٠٠ و١٢٠٠٠ نسمة.

وفي سنة ١٩٠١م/١٣١٨هـ، زار الجوف المبشر الإنجليزي آرتشيبالد فورد، بهدف التبشير بالنصرانية وكان يحمل نسخ من الإنجيل باللغة العربية لتوزيعها على السكان. وصف هذا المبشر رحلته التي قد لا تكون مهمة من الناحية التاريخية، لكنه استخدم الكمرة (الكاميرا) وقدم أول صور فوتوغرافية لمعالم الجوف. كما أن ما كتبه كان يشير إلى استقرار الأوضاع في الجوف إدارياً كما كانت

عليه منذ زيارة آخر رحالة، فجوهر كان ما يزال هو نائب أمير حائل في الجوف.

وفي سنة ١٩٠٨م/١٣٢٥هـ، زار ضابطان إنجليزيان هما اس.اس بتلر و ل. إيلمر الجوف وكانا في طريقهما من بغداد إلى دمشق، وقدّما معلومات مهمة؛ إذ وصفا ما كان يحدث في حائل من صراع سياسي داخل العائلة الحاكمة في حائل. وأن فيصل بن حمود الرشيد قد أصبح أميراً للجوف قبل شهر من زيارتهما، وقد قابلاه شخصياً. ولم يضيفا جديداً حول الجوف من النواحي الأخرى إلا أنهما أيضاً قدّما صوراً فوتوغرافية جيدة.

بعد جميع هؤلاء الرحالة الذين تبعوا والن، جاء دور أهم وأعظم رحالة على الإطلاق ممن زاروا منطقة الجوف، وهو الرحالة والمستشرق التشيكي الويس موسيل. فقد قدّم ما لم يقدمه أحد غيره حول شمالي الجزيرة العربية جغرافياً وتاريخياً واجتماعياً وسياسياً، بشكل عام، ومنطقة الجوف بشكل خاص. لقد قام موسيل بزيارتين إلى الجوف؛ الأولى وكانت سنة ١٩٠٩م/١٣٢٧هـ، وكان في رحلة شاملة يرسم خريطة شمالي الجزيرة العربية، ويجول مع قبيلة الرولة. وفي وصفه لرحلته هذه قدم موسيل معلومات تاريخية مهمة، تتعلق بتطور الأوضاع السياسية فيها؛ فقد وصف انتقال حكم الجوف من ابن رشيد إلى نواف الشعلان. فبعد تدهور الحالة السياسية داخل عائلة الرشيد، ترك فيصل بن حمود الرشيد أمير الجوف المنطقة، مخلفاً وراءه فراغاً سياسياً فأراد نواف ملئه بطلب من بعض شيوخ البلدة؛ فاندلعت حرب أهلية في دومة الجندل وسكاكا بين المؤيدين والمعارضين للحكم الجديد. وقد وصف موسيل هذه الأحداث، وبيّن الدور الذي لعبه فيها، والدور الذي لعبه في تأسيس الأمارة الجديدة والمحافظة عليها. كما وصف موسيل شخصيات البلدتين الرئيستين في المنطقة، دومة الجندل وسكاكا والعدوات القائمة بين أحيائهما. وكيفية حسم الأمور لصالح الحكم الجديد بعد سنتين من الصراعات بين الحكم الجديد وبعض شيوخ المنطقة.

أما رحلة موسيل الثانية، فقد جاءت سنة ١٩١٥م/١٣٣٣هـ، وفيها وصف موسيل الأوضاع السياسية والاقتصادية والاجتماعية في إمارة الجوف المستقلة، وعدّها إمارة من إمارات الجزيرة العربية، ذات الكيان الخاص بها، بعلمها وجيشها وسياستها الداخلية والخارجية. ووصف موسيل معاناة أهلها خلال فترة زيارته لاستمرار حروبهم مع إمارة حائل والقبائل المجاورة، وتوقهم للسلام مع جيرانهم.

استحوذت منطقة الجوف على حيز كبير في كتابات موسيل العلمية، ولكن كثيراً من المعلومات لا سيما الموجودة في أوراقه الخاصة ومذكراته، لا تقل أهمية عما نشره، وقد أطلعت شخصياً على بعض هذه الوثائق وحصلت على نسخ منها، خلال زيارات متكررة إلى المتحف المحفوظ فيه أوراقه الخاصة في جمهورية التشيك، ستبين الكثير مما خفي حول تاريخ إمارة الجوف خلال الفترة الواقعة من عام ١٩٠٩م/١٣٢٧هـ وحتى عام ١٩١٩م/١٣٣٧هـ تاريخ نهاية هذه الأمارة.

وفي عام ١٩٢٢م/١٣٤٠هـ، زار الجوف الضابط السياسي البريطاني في عمان جون سانت فيلبي، الجوف لدراسة أوضاعها السياسية، وقدم وصفاً لأحداثها وأوضاعها، مبيناً لحالة الصراع السائدة فيها، والظروف التي سبقت انضمامها لحكم الملك عبدالعزيز.

كان فيلبي آخر الرحالة الأوروبيين في منطقة الجوف، خلال الفترة التي تحدثنا عنها، إذ دخلت الجوف في مرحلة جديدة وعهد جديد الدور لمعرفة تفاصيله للوثائق أكثر مما هي للرحالة.

وأخيراً، أوجز القول بأن ما كتبه الرحالة الأوروبيون كان مهما جداً لأي كتابة لتاريخ المنطقة الاجتماعي والسياسي والثقافي والسكاني، وأنه بدون ما كتبوه كانت ستبقى ثغرات كثيرة في تاريخ المرحلة التي وصفوها من تاريخ المنطقة.

حالات الأثر ...

■ هاشم الجحدلي

حالات الأثر

أمضي إلى حتفي
كأني غارق في تيه أسئلتي
صحراء ذاكرتي
وصحراء حياتي كلها
وكأنني الصبار
لا الليل يرحمه .. ولا نوح الغمامّ
فاكتبوا مرثيتي بدمي
ودعوا ظلالي .. تستفيق على الضلال
وتستجير بحزن نايٍّ
أمضي.. وأمضي.. ثم أمضي
لا شيء يشبهني سوايّ

أمضي إلى حتفي وحيداً .. موحشاً
ولن أقول سوى
على الآتي السلامّ
أمضى .. وأمضي .. ثم أمضي
لا الأرض أرضي
ولا السماء للوعتي كانت ملاذاً
ولا معي .. إلايّ
في تغريبة النفي الجديدة
نحو آخرة القصيدة
لغتي عناق النار
للمطر الصباحي الندي
وبهجتي سوداء .. مهملة
مزاجي غائم
وكأنني للتو أخرج من عزاء أعز
أشيائي
وأسكن في فنائي .

قصيدة المحبة

هلت
لتغمرني بفيض دلالها
فأكاد من فيض الدلال
أذوب تيهاً
وأكاد اكتب سيرتي الأولى
من موت قافيتي
إلى ميلاد أجمل ما كتبت
لها ... وفيها

فكأنني ما قلت حرفاً قبلها
ولا نثرت حريق أشعاري
إلا عليها

وكأنها .... ما أشرقت لغة
ولا كانت حياة ،

الا ببهجة روحها ..
وبهاء رؤياها
كأنها " كلي"
يحل مدوزناً في عمق أعماق القصيدة
دونما وزن وقافية
ودونما معنى،
سوى معناها

فأقول : يا الله
علمني المحبة
ثم زدني لوعة
وخذ بروحي نحو فتنتها
لتكون آخرتي بآخر منتهاها
كي لا أحب أنا سواها

غزل شمالي

دائما باتجاه الشمال

كان الهوى بوصلة .

أو كأني أجي لها واحد

و أعود وحيدا

ومزدحما بالتي في دمي

أو كأن القصيدة تورق بين الأصابع كالسنبلة

دائماً باتجاه الشمال

ولا شيء غير الرمال

فهل يأوي الرمل من هدهدته السواحل

واصطخبت في يديه المويجات

هل يأوي الرمل ؟

دائماً باتجاه الشمال

وتشتاق للركض نحو ملاذ الشمال

لأن الهوى بوصلة

دائماً باتجاه الطفولة

نشتاق للركض نحو ملاذ الطفولة

كي لا نشيخ

قتامة الثلاثين

■ عيد الخميسي•

.. محاطة بالرغبات المقيتة
بالأنياب الزرقاء اللامعة
لعصافير تتخبط في السوائل السوداء
قتامة الثلاثين .
السوائل التي تتماصل في الجوف بانتباه
لئلا يفضحها الاندهاش، حين تمر عليها السنوات
بريش منفضتها
وهي تزيح الغبار عن نظرة ثقيلة...
يهدم ملامحها الرملية أنها لا تحمل تحدٍ، أو تساؤل..
تتابع المنفضة عملها
لتلحس القتامة، بعد ذلك، وجهها الكثيف الرخو ...
الذي لم تجد له طعماً .

غير ظاهر

فتق غير ظاهر في الحذاء...
يدفعك ألا ترفع قدمك كثيراً ،
أن تقصر خطوتك ،
تضع ثقلك أكثر على الحذاء السليمة
تتأنى وتحاذر الاندفاع
.. لابد أن تدرس ما ستضع عليه قدمك في الخطوة التالية
ألا تقترب من الأراضي الزلقة وتجمعات المياه
ليس مهماً أن يلحظ الآخرون ذلك
فلقد رأيتَ الفتق وتفحصته هذا الصباح ..
لكنك لم تلحظ ما حدث بعد ذلك، حين انتقل للجلد والوجه
حبات العرق الصغيرة التي نزت منه مسحتها اليد الباردة
وتفوّه اللسان الجاف بتعليق صغير لم يكف، كعزاء .
مناظر مبالغ فيها
عرفوا أنك تمر على نظرتك الثقيلة بمنشفة مبللة
ليجف الصمغ ولا تلتصق بالمناظر الجميلة للعتبات
والجسور والكلمات ...
أنك سكبت عليها الماء الساخن وحككتها بأظافرك
أن شفاهك السوداء مجّت دخاناً كثيراً وهي تُطبق
وأنها لا تطبق على مناظر جميلة...
عرفوا ذلك وسيعرفون الأمر مهما بالغت في انتظارك .

• شاعر سعودي

نُبلِل أقدامَنا .. بالحديث

■ علي الحازمي

جنوبيَّةً ... كانت الريحُ تحمِلُنا في على دفَّةِ البحر

الشراعِ جَلسنا إلى غُربة الوقتِ

مُذْ رَكِبْنا على زُرقةِ البحرِ رُحنا نُبلِّلُ أقدامَنا بالحديثِ

والموجُ مُعتدلٌ في خُطاه عن العائِدين بفجرٍ وَفيرٍ

مراكبُنا أطلقتْ صدرَها للرياحِ لأحداقِ أطفالِهم

ولم تكترثْ بأمانٍ من البُعدِ كان لها لم نَشأْ أنْ نعودَ بخيبةِ أحلامِنا

كُلُّ شيءٍ مُعدٌّ بهذا الصباحِ عندما عَلِقتْ وحدَها بالشباكِ

لأنْ نَسْتَرِدَّ مِنَ البحرِ انتظرنا مساءً طويلاً على صمتِنا

بعضَ أناشيدِنا الساحلية والرياحُ جنوبيَّةٌ في شِراعِ الجوانحِ

مَضينا معَ الريحِ ... تَأخُذُنا لمهبِّ الحنينِ المقِيمِ

تدفَعُنا في المدى غبطةٌ على اليابِسة

والمَواويلُ تطفو على فِضَّةِ الماءِ كان ليلُ الشواطِيءِ مُنشغلاً

تُلهِبُ من رَغبةٍ في جَناح المراكبِ ، بالصلاةِ على روحِنا

رُبَّما لم يَكُنْ حُلْمُنا مُوْثَقاً وزهورُ الأماني الصغيرةِ

بالشباكِ كما ينبغي ظَلَّتْ هُناك ... على سَاحِلِ العُمرِ

بَيْدَ أنَّ الحياةَ تطوِّقُ كَفَّ المحالِ ظَلَّتْ ...

بأرواحِنا وتُسمِّرُ كُلَّ الأيادي مُجَفَّفةً كالغِيابِ

تصورْ ..

■ طارق ناصر

حسبتُ القلب تصحرَّ
وأن العمر مضى حزناً
وأنا بالفرح أجدرَّ
ظننتُ - ظن السوء -
أنَّ الحبَّ .. عندَ قدمي تعثرَّ
لكنهُ ،
داهمني الحبُ يا صاحبي
وأدركتُ
أنه فقط .. تأخر!
تصور
هو الحبُ إذن
يصلح بداخلنا ما تكسر
وينثني مبتسماً
ويمدُ يداً
لهذا الجرحِ النازفِ
لتدركَ يا صاحبي
أنك حين تُحب
فإن الماضي
حتى الماضي !
قد تغيّر ..

هجرات القبائل العربية

■ إبراهيم بن خليف السطام

اختلف العلماء في تعيين مهد الشعوب العربية، لكن الرأي السائد بين معظم الباحثين، أن شبه الجزيرة العربية هي المهد والمنشأ الأول للإنسان العربي، ومنها بدأت الهجرات العربية المتواصلة منذ الألف الرابع قبل الميلاد، ومن هؤلاء: الأكاديون، والآشوريون، والكنعانيون، والفينيون، والعموريون، والآراميون، والأنباط، والمناذرة، والغساسنه، والهلاليون،والطائيون،والعتريون[١] ويعزون ذلك إلى حلول الجفاف التدريجي في شبة الجزيرة العربية، بعد أن كانت منطقة مطيرة، في عصور تعود إلى ما قبل عشرة آلاف عام، إبان الانحسار الجليدي عن أوروبا، وعندها كانت الأمطار في الجزيرة العربية منتظمة في جميع فصول السنة، بدلاً من أن تكون مقصورة على فصل الشتاء.

وعندما حل الجفاف بالجزيرة العربية، اختفت كثيرٌ من الأنهار والأودية الجارية مثل: وادي الحمض، وادي سرحان، وادي الرمة، وادي حنيفة، وادي الجبلين[٢]

وقد ورد في السنُّة المطهرة ما يشير إلى أن بلاد العرب كانت وستعود مروجاً وأنهاراً.

والأصل في ذلك ما جاء في القران الكريم بقول الله تعالى: ﴿ألم يروا كم أهلكنا من قبلهم من قرن مكّناهم في الأرض مالم نمكن لكم وأرسلنا السماء عليهم مدراراً وجعلنا الأنهار تجرى من تحتهم﴾[٣]. وفي هذه الآية الكريمة مايشير إلى أن بلاد العرب كان يسودها عصرٌ مطير، وأنهار ذات مروج وأنهار.

وعلى مر العصور كانت القبائل العربية في ترحال وتنقّل مستمر، بين أنحاء الجزيرة العربية.

ويقول بعض الباحثين، أنة في حالات الحروب بين القبائل العرية والشعوب

المجاورة في بابل وآشور، أو مع الروم، الفرس وحلفائهم من العرب، كانت الهجرة من الشمال إلى الجنوب؛ لأن الصحاري العربية تمثل عمقاً إستراتيجياً يستعصي على الأعداء التوغل في داخلها.

أما في حالات الأمن والرخاء، فإن هجرة القبائل كانت ولا تزال من الجنوب إلى الشمال باتجاه الهلال الخصيب، حيث الأجواء المعتدلة والأنهار والأمطار.

وعندما نقرأ في تاريخ منطقة الجوف، وقبائلها، نجد أن أفواجاً وهجرات بشرية من القبائل العربية مرت بها، عبر العصور المتلاحقة باتجاه بلاد الرافدين، أو بلاد الشام.

وفي القرون الأخيرة، كانت هناك قبيلتين عظيمتين في بلاد العرب، هما الطائيون والعتريون، يمثلون ذروة الهجرات التاريخية في القرون الأخيرة، وكانت منطقة الجوف إحدى محطات العبور أو الاستقرار لهاتين القبيلتين.

فمنذ القرن السادس الهجري، وبعد تفرّق الكلبيين وتوغلهم في بلاد الشام، ظهر الطائيون في هذه المنطقة.فقامت الإمارة الطائية في بلاد الشام، وفي تلك الفترة ظهر آل عمرو وآل سرحان على مسرح الحياة وعُرف الجوف باسمهم[٤]، وفي أوائل القرن الثاني عشر كانت أفخاذ من عنزة، ما تزال في الحجاز ومنازلها قرب خبير ويجاورها من الشمال بنى صخر[٥]، وعند ذلك هاجرت الجلاس (الرولة والمحلف) وهم آخر أفواج هجرة العنزيين إلى الشمال[٦].

وعلى إثر ذلك استقر قسم من الرولة في منطقة الجوف، وقسم آخر واصل الترحال إلى بلاد الشام، وكان لهم دور معروف في هذه المنطقة، وفي بادية الشام، ولا يتسع المقام للحديث عن ذلك.

وفي القرن الثالث عشر أيضاً، أي عام ١٢٠٥هـ تقريباً، هاجرت بطون من قبيلة شمر من منطقة الجبلين، ومن شمالي الجزيرة العربية إلى العراق، ومنهم فخذ الجربا، وذلك في أعقاب منازلهم بينهم، وبين الإمام سعود بن عبدالعزيز آل سعود [٧]، وقيل أن هجرتهم بسبب الجدب الذي حل بأرضهم، ثم تبعهم كثيرون من عشائر شمر، إلى أن استقر بهم المقام في أنحاء مختلفة من العراق وسوريا، ومع أن التراع وغزوات النهب والسب كانت سائدة بين العتريين والطائيين حول الماء والكلاء. فقد حل الوئام والتفاهم بينهما،وذلك عندما تحولت فروع من القبيلتين من حياة البداوة والترحال، إلى حياة التحضر والاستقرار.

والسؤال الذي يتبادر إلى الذهن: ماذا ستكون عليه الحال بعد أن توقفت الهجرات العربية المتواصلة من الجزيرة العربية ؟ - حيث كانت القبائل العربية حرة في تنقّلها، وفي اختيار أماكن ترحالها وإقامتها في كل أرجاء الوطن العربي.وذلك قبل أن تفرض عليهم الحدود، والوثائق، والجنسية، في ظل التنظيمات الاستعمارية الحديثة - مما يعني أن الجزيرة العربية - المملكة العربية السعودية - سوف لن تدفع بأفواج من رحمها إلى دول الجوار، وهذا يقتضي أن تبادر المملكة إلى التخطيط المبكر لاستيعاب النمو السكاني والبشري المتزايد والمنتظر خلال العقود القادمة.

١- الهجرات العربية القديمة (د. محمود عبدالحميد أحمد)
٢- المصدر نفسه.
٣- الآية ٦ من سورة الأنعام
٤- عبدالرحمن السديري الجوف وادي النفاخ.
٥- دكتور علي شواح الشعبي (القشعم).
٦- محمود محسن مهيدات عشائر شمال الأردن.
٧- أبو عبدالرحمن بن عقيل مجلة العرب العمود ١،٢ س ١٧ رجب ١٤٠٢هـ

أدب الخيال العلمي العربي بين الجذور والحاضر

■ د. أسد محمد

ظهر الخيال العلمي كأدب، مع تطور العلم والإنجازات التقنية الكبيرة التي رافقته، في نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين، التي تمخض عنها الكثير من الاكتشافات والتقنيات التي أثرت على الحياة بمجملها؛ ومنها الأدب، الذي تفرّع عنه نوع جديد جاء تحت مسمى أدب الخيال العلمي كرديف لتلك التطورات. وإذا كان كتّاب هذا النوع من الأدب قد رسخّوا هذا الشكل الفني، ووضعوا له أسساً واضحة، و تنبؤوا بفطنة وذكاء منذ البداية، بنبوءات مهمة كالصعود إلى القمر وشكل المركبة الفضائية، فقد ظل هذا الأدب ولا يزال يثير جدلاً كبيراً بين القراء والنقاد على حد سواء؛ وأهم مرتكز لهذا الفرع صلته الوطيدة مع العلم، سواء من حيث الركون إلى الاكتشافات في سرد النصوص أو الجنوح وراء الفنتازيا، إلى أقصى حد لكتابة حكايات، لا تتفق ومفهوم الخيال العلمي.

يعرّف الخيال العلمي (science fiction) بأنه إبداع يمتزج فيه العلم مع الخيال والانتقال عبر آفاق الزمن، على أجنحة الحلم المطعم بالمكتسبات والاكتشافات العلمية. ويطرق مؤلفوه أبواب المستقبل، بتنبؤاتهم دون زمن محدد؛ فهو نظرة واسعة على العالم يدخل فيها العلم، فيمتزج بحقائقه مع خيال الكاتب، ترسم أحداثاً تنقلك عبر الزمن إلى المستقبل، أو الماضي السحيق، وعبر المكان إلى الفضاء الخارجي وأعماق البحار، ومستفيداً من الدراسات الاجتماعية والنفسية ولج أدب الخيال العلمي إلى داخل النفس البشرية عبر منظومتي العلم والخيال.

جذور أدب الخيال العلمي في الأدب العربي:

كان لا بد من الوقوف عند تعريف الخيال العلمي، كي نجد التباين والتطابق بين ما أنتجه الأدباء العرب في قديم الزمان وفي حاضره، ووفق التعريف، ومن دون شك، نجد الكثير من الأعمال الأدبية في التراث العربي، تندرج تحت هذه المسمى. ومع الإشارة أن المصطلح بالتأكيد لم يكن معروفاً، يحفل تراثنا العربي القديم بالكثير من الشواهد، التي ارتكزت على الخيال في رؤيتها لما يحيط بها.

وتبدأ قصص الخيال مع ملحمة جلجامش، التي قدمت لنا بطلاً على هيئة رجل ثلثاه من الآلهة وثلث من البشر، وسعى في الأرجاء باحثاً عن نبتة الخلود، وعندما وجدها سرقت منه فأيقن أن الموت لا مفر منه؛ ولا يكون الخلاص إلا بالأعمال الخيّرة، فراح يبني أسوار أوروك لكي يخلد ذكراه أمام شعبه، كذلك تحفل العصور الجاهلية بكم كبير من الأساطير والقصص، التي احتل فيها الخيال بعداً تكوينياً مهماً، وتميزت بفنتازيا جامحة تعكس مخاوف الناس وأحلامهم، وطرق الدفاع عن أنفسهم؛ كحكايات الجن والعفاريت، والحصان الطائر، والبساط السحري، ومصباح علاء الدين، وطاقية الإخفاء، والإنسان المجنح.. الخ

ثم بدأت مرحلة أكثر نضوجاً، من حيث الوضوح وبلورة مفاهيم قربت الخيال من التأسيس على وقائع معرفية، ومن هذه الأعمال التراثية "رسالة حي بن يقظان"، الشهيرة، للعالم الفلكي ابن الطفيل، كتبها في القرن ١٢م، في منطقة مراكش الأندلسية ، وتعد الندرة الأولى في مقل أدب الخيال العلمي؛ فهي قصة تحكي حياة غلام عاش في جزيرة نائية، معزولاً عن البشر، أرضعته ظبية، تربى وتعلم بفطرته وسلوكه الفردي حتى اهتدى إلى الإيمان بالخالق عز وجل، فهذه الرسالة تحوي مقومات الخيال العلمي، وتتحدث عن عملية التكوين الإنساني والنشأة وأثر البيئة والعوامل الطبيعية على الإنسان وحياته، بعيداً عن المؤثرات البشرية، فهي غنية بصور الخيال العلمي الخلاق.

وتوجد أعمال أخرى، مثل: " تكاذيب الإعراب". وقد وردت نصوص منها في كتاب الكامل للمبرد ٢٦٨هـ، وكتاب " الفرج بعد الشدة " للتنوخي ٣٨٤هـ، وفيها إشارات واضحة حول اختراق الزمن، مثل: القول التالي: "لقد رميت ظبيا مرة فعدل الظبي، فعدل السهم خلفه، ثم علا الظبي، فعلا السهم خلفه ثم عدل الظبي، فانحدر الظبي فانحدر السهم عليه"، وهذه الصورة توضح تفكير الإنسان، في كيفية السيطرة على مسار السهم والتحكم بالزمن.

وهناك أعمال أخرى قامت على الخيال الجامح، مثل: قصة رأس الغول، وكتاب ضياء الأنوار للمؤلف أحمد بن عبد الله البكري من القرن الثالث الهجري، ورسالة الغفران للمعري، وقصص ألف ليلة وليلة.

حاضر أدب الخيال العلمي في الأدب العربي:

بدأ أدب الخيال العلمي على يد مؤسسيه الفرنسي جول فيرن (مواليد ١٨٢٨)، والإنكليزي هربرت جورج ويلز (مواليد ١٨٦٦م)، ودشنا مرحلة التأسيس التي استمرت حتى عام ١٩٣٨، وأهم ميزات هذه المرحلة اعتمادها على الرحلات، عبر الزمن إلى عوالم مجهولة، وأبطال مغامرون، وتناقض بين سير الأبطال وأفعالهم، وعدم الاستفادة بما فيه الكفاية من الاكتشافات العلمية الحاصلة.

ما يهمنا هو بداية كتّاب الخيال العلمي العربي، الذي تأخر ما يقارب نصف قرن، حتى صدر أول عمل إبداعي متأثراً بأدب الخيال العلمي الأوربي، فحتى في أمريكا تأخر الأدباء في تمثيل هذا الإبداع إلى ما بعد عام ١٨٣٨، مع تسلم كامبل رئيس تحرير مجلة " الخيال العلمي الصاعق"، لكنها انطلقت مع

ادوارد سميث ولا تزال في المقدمة، أما العرب، فلم يتمثلوا هذا النوع من الإبداع إلا في الخمسينيات من القرن العشرين، بسبب التخلف التقني والعلمي، وعدم إنجاز التواصل الإبداعي بين العلم والأدب، إلى أن قدم الكاتب المصري توفيق الحكيم أول قصة له، عام ١٩٥٣بعنوان: "في سنة مليون"، ثم مسرحية عام ١٩٥٨بعنوان: "رحلة إلى الغد".

ثم كتب د. مصطفى محمود روايته " العنكبوت " (١٩٦٤م)، و"رجل تحت الصفر" (١٩٦٧م)، ومن بعده كتب نهاد شريف روايته " قاهر الزمن" (١٩٦٦م)، والتي تلتها ٦ روايات أخرى و٨ مجاميع قصصية ومسرحيتان، إلى جانب عدد من الدراسات النقدية في هذا الأدب.

وفي السبعينيات: كتب سعد مكاوي مسرحية "الميت الحي" (١٩٧٣م) وقصتين ضمن مجموعته "الفجر يزور الحديقة" (١٩٧٥م).

وكتب الأديب محمد الحديدي رواية بعنوان "شخص آخر في المرآة" (١٩٧٥م)، ثم جاءت كتابات رؤوف وصفي، فبدأ بمجموعته القصصية "غزاة من الفضاء" (١٩٧٩م)، وتلتها ثلاث مجموعات للكبار، وواحدة أخرى للصغار.

وفي الثمانينيات والتسعينيات: قدَّم الكاتب إبراهيم أسعد محمد مجموعته "قصص أخرى" (١٩٨٠م)، وحسين قدري روايته "هروب إلى الفضاء" (١٩٨١م)، كما كتب صبري موسى روايته "السيد من حقل السبانخ" (١٩٨٦م)، ثم قدم صلاح معاطي مجموعته القصصية "أنقذوا هذا الكوكب" (١٩٨٦م)، فمجموعته الثانية "العمر خمس دقائق" (١٩٩٢م)، وكتب عمر كامل روايته "ثقب في قاع النهر"(١٩٨٧م)، ود. علي حسن روايته "السرطان وابتسامة سليمان" (١٩٨٧م). وإيهاب الأزهري روايته "الكوكب الملعون" (١٩٨٧م)، وعادل غنيم روايته "نادي من عظام فتاة" (١٩٨٩م)، ومهندس صلاح عبد الغنى روايته "شجرة العائلة الأفقية" (١٩٩٠م)، وأميمة خفاجي روايتها "جريمة عالم" (١٩٩٢م)، والسيد القماحي قصته "الميكروصوت" (١٩٩٣م).

كل هذه الأسماء من مصر، أما من الدول العربية الأخرى، فقد كتب محمد عزيز الحبابي من المغرب رواية "إكسير الحياة" (١٩٧٤م)، ود. طالب عمران من سوريا روايته "العابرون خلف الشمس" (١٩٨٧م)، تلتها أربع روايات وأربع مجموعات قصصية وخمس مجموعات للأطفال، وزادت أعماله عن الأربعين عملاً، كما كتب عبد السلام البقالي من المغرب رواية "الطوفان الأزرق" (١٩٧٩م)، ومجموعتين قصصيتين للأطفال، وقاسم الخطاط من العراق رواية "البقعة الخضراء" (١٩٨٤م)؛ وطيبة أحمد الإبراهيم من الكويت رواية "الإنسان الباهت" (١٩٩٢م)؛ وجمال عبد الملك من السودان - مجموعة قصص "الجواد الأسود" (١٩٩٤م). ولينا الكيلاني من سوريا التي كتبت رواية المستقبل ١٩٩٧وسندريلا عام ٢٠٠٠؛ وقاسم قاسم من لبنان في عمله " لعنة الغيوم " إضافة إلى أسماء أخرى يزيد عددها عن الأربعين كاتبا عربيا.

ما هي سمات أدب الخيال العلمي العربي؟

هذا السؤال يمكن الإجابة عنه بعد الإطلاع على تجارب الآخرين الرواد، الذين قطعوا شوطاً كبيراً في هذا المجال.

١- حجم الإنتاج ما زال متواضعاً، والجدية في التعامل مع هذا الأدب من قبل الكتاب لا تزال ضعيفة، إضافة إلى عدم الفصل بين ما هو علمي وما هو فنتازي؛ فلا يمكن القبول بالخطأ الفادح عندما كتب أحدهم عن رحلة محطة عربية إلى كوكب المشتري، وهو كوكب سائل غازي، أو أن تحلق طفلة في فقاعة صابون حول العالم.

٢- ضعف الأداء في هذا المجال، وثمة قلة من

الكتاب العرب الذين أخلصوا لهذا الأدب، أي كتبوا أعمالاً محدودة ضمن أعمالهم الأخرى، مثل توفيق الحكيم وغيره، والذين أخلصوا قلة أمثال: نهاد شريف من مصر ود.طالب عمران من سوريا.

٣- عدم بلورة هذا الأدب، ليأخذ مكانه بين بقية فروع الإبداع، وعدم اهتمام النقاد والمؤسسات به.

٤- زيادة الكم المتخيل في الأعمال على الكم العلمي، ولم تظهر الآلة في الأعمال كبطلة شريكة تساعد الإنسان، وتدفع به نحو بطولات تمكنه من اختراق المجهول. ويعود السبب إلى عدم معرفة الكاتب العربي بميادين الاكتشافات العلمية ومعايشتها، فاستخدم فقاعة الصابون بدل المنطاد، أو أن يصعد إلى القمر عن طريق مصعد من بناية بعشرة طوابق، بعد أن كتب جول فيرن روايته "من الأرض إلى القمر" عام ١٨٦٥، وتخيل فيها رحلة إنسان إلى القمر باستخدام مركبة فضائية تطلق بواسطة مدفع ضخم، ثم عودة الرواد إلى الأرض وهبوطهم في مظلة في البحر، وهذا ما حدث بعد مئة عام في أب ١٩٦٩على متن مركبة أبوللو.

٥- عدم استفادة بقية وسائل الإعلام (سينما، تلفاز، راديو..) من تحويل أعمال الكتّاب إلى أفلام ومسلسلات، مع استثناءات قليلة، مثل: تحويل رواية "قاهر الزمن" لنهاد شريف على يد المخرج كمال الشيخ إلى فيلم سينمائي"، وبعض الأعمال المشهدية في التلفزيون السوري لـ د. طالب عمران؛ بينما أصبح أدب الخيال العلمي في الغرب مادة أساسية لكثير من الأفلام للكبار والصغار، بدءا من عام ١٩٠٢ ، عندما جرى تصوير الفيلم الصامت الذي أخرجه جورج ميليس لرواية " من الأرض إلى السماء" ولا يزال تنتج مثل هذه الأعمال بغزارة.

٦- لم يتمكن كتّاب الخيال العلمي من اجتذاب القراء إليهم، على ما يبدو، ولم يؤسسوا لمدرسة قادرة على التأثير، ونشر الفكر العلمي بين القراء خاصة الناشئة منهم.

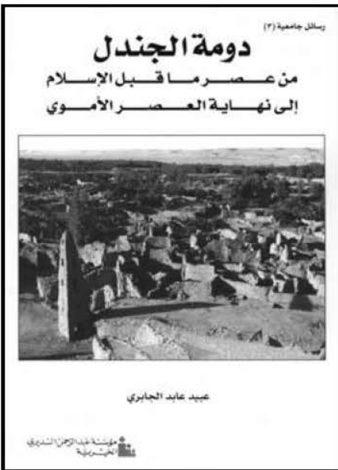
إذن ما يزال أمام هذا النوع من الأدب في عالمنا العربي الكثير من الجهد، خاصة بعد تنوع المعارف ومصادر المعلومات، وطرق إيصالها للمتلقي، وظهور فروع جديدة للعلوم، مثل: علم الوراثة، والاستنساخ، وعلم الأجنة والسلالات، وعلوم الفضاء، والزراعة المعدلة وراثياً، وعلم النفس والاجتماع.. كلها مجالات جديدة يمكن الإفادة منها في اقتحام هذا المجال الذي يتزايد الاهتمام به يوما بعد يوم.

أهم المراجع:

١- آفاق أدب الخيال العلمي - روبرت سكولز - ترجمة حسن حسين شكري - الهيئة المصرية العامة للكتاب - ١٩٦٩

٢- الخيال العلمي في الأدب - محمد عزام - دار طلاس - ١٩٩٤

٣- علم الخيال ومستقبل الإنسان، الطيب الجويلي - تونس - ١٩٩٦.



تنمية التفكير والموهبة عند الأطفال

■ محمد صوانه

أين يكمن السر في تنمية طرق التفكير والكشف عن المواهب الكامنة لدى الأطفال؟ إنه الابتداء! فالخطوات الأولى للطفل في اكتشاف وتلمّس ما يشاهده، تعطيه الانطباع الأول عما حوله؛ فإذا تابعه والداه، ووفّرا له البيئة المناسبة للتعبير عما في نفسه، ودفعاه نحو إثبات قدراته، وإطلاق العنان لطاقاته؛ فإنه سيستمر في الارتقاء.

يولد الإنسان، وهو يحمل تشكيلة متنوعة من الصفات الوراثية من والديه، مع اختلافات بين شخص وآخر، حتى بين الأشقاء في الأسرة الواحدة. ويعد الذكاء، من أهم الصفات المرغوبة لدى الآباء والأمهات ويتمنون أن يولد لهم أبناء أذكياء. ومن الطبيعي أن يكتسب كل مولود نسبة معينة من الذكاء، ولكن المؤكد أن القدرة على التفكير لدى الطفل يمكن تنميتها وتعهدها بالرعاية من قبل الوالدين أو من قبل القائمين على رعاية الطفل وتعليمه.

ولأهمية أن يمتاز الأبناء بالذكاء والفطنة، والقدرة على تحليل الأمور والربط بينها، وتدبّر أمورهم بأنفسهم، برع علماء الرياضيات في ابتكار المسائل الرياضية، التي تدرّب التلاميذ على إعمال تفكيرهم وإطلاق طاقاتهم الذهنية. ولذا، نجد في الفصول الدراسية أن التلاميذ يتفاضلون في معظم المواد الدراسية، ولكن مادة الرياضيات، تكتسب الأهمية الأكبر في تحديد مستويات الذكاء والفطنة، والقدرة على التفكير، وإيجاد الحلول والبدائل للمسائل الرياضية المتنوعة.

لقد تنبّه العلماء اليابانيون لأهمية ذلك؛ فاعتمدوا وسائل عديدة لتعليم الأطفال طرائق العصف الذهني، وأخذوا يعقدون لهم جلسات خاصة في الفصول الدراسية، لتعلم الوسائل والأساليب، التي من شأنها أن تسهم في تنمية طلاقة التفكير لديهم منذ الصغر. ومَنَ مِنَّا يُنكر مدى التقدم العلمي الهائل، الذي حققه اليابانيون في مختلف مجالات العلم والصناعة الإلكترونية؟ وما كان ذلك ليتحقق لولا وجود تقنية تعليمية متقدمة في المدارس والمعاهد العلمية والجامعات.

إن مؤسسات التربية والتعليم الحكومية منها والأهلية في الوطن العربي، مدعوة إلى الأخذ بالأسباب المؤدية إلى تنمية الميول الإبداعية عند الأطفال، وإيلاء هذه المهمة إلى مؤسسات وهيئات متخصصة تعنى بتوفير الوسائل والإمكانيات اللازمة للأطفال، بشكل عام، والموهوبين، بشكل خاص؛ فالاهتمام ينبغي أن لا يقتصر على الموهوبين، فلا يمكن معرفة متى تتطور المواهب؟ ومتى تبرز عند الأطفال؟ لذا، فان التركيز على فئة دون أخرى، يحرم المجتمع من مواهب، قد تضمحل أو تخبو إذا أهملت، وبالتأكيد فإنها ستنضج وتثمر، إذا وجدت العناية اللازمة.

ومن التوصيات التي يجدر أخذها بعين الاهتمام والرعاية، في هذا المجال ما يأتي:

١. أن يتكامل دور البيت مع المدرسة، في رعاية وتنمية طلاقة التفكير لدى الأطفال منذ سنوات عمرهم الأولى، ويمكن عقد برامج موجهة للآباء والأمهات في هذا المجال.

٢. توفير برامج تدريبية للمعلمين، متخصصة في وسائل تطوير الإبداع عند الأطفال.

٣. أن تتولى المؤسسات العلمية ابتكار الوسائل والأدوات اللازمة لتهيئة المناخ الملائم لهذا التوجّه، وتتعهده بالرعاية والدعم المادي والمعنوي.

٤. قيام المؤسسات ذات العلاقة بدور ريادي، في تطوير برامج متلفزة للأطفال، يشرف عليها متخصصون في مجال تنمية التفكير والإبداع، وتوفير آليات التواصل الفاعل مع الأطفال في هذه البرامج الهادفة، نظراً لإقبال الأطفال على متابعة البرامج الموجهة لهم، لما فيها من ترفيه وتشويق.

٥. تشجيع نشر الكتب المصورة، وقصص أدب الأطفال التي تعنى بتنمية التفكير، والكتيبات الخاصة بعرض قصص المبتكرين والمتميزين من العلماء، بأسلوب شيّق ومناسب لمرحلة الطفولة، وتوفيرها بأسعار مناسبة، فضلاً عن توفيرها في المكتبات المدرسية، ومكتبات الأطفال العامة.



٦. تأسيس هيئة رسمية خاصة تتولى رعاية الأطفال المتميزين والموهوبين وتشجيعهم، من خلال الاهتمام بإبداعاتهم وتوفير المناخ الملائم لتطويرها، وتقديم الحوافز المناسبة لهم.

٧. تنظيم مهرجانات سنوية، للمبدعين من الأطفال. تعرض فيها إبداعاتهم، ويدعى لحضورها طلبة المدارس في المراحل العمرية، ويجري التحضير لها بشكل متكامل. ويمكن إقامة محاضرات وندوات يشارك فيها متخصصون في مختلف العلوم ذات الصلة بالإبداع والاختراعات، واستضافة بعض المبدعين الكبار لعرض تجاربهم الشخصية أمام الأطفال.

إن إنتاج وإدارة برامج ريادية تُعنى بتنمية التفكير وإشاعة روح الإبداع عند الأطفال؛ من شأنها، بإذن الله، أن تسهم في إخراج أجيال أقدر على مواجهة تحديات المستقبل، لا بل أقدر على صناعة الحياة، أجيال فاعلة، تضم مبتكرين ومبدعين ومبادرين، لا منفعلين مقلدين يكتفون بالتلقي. والفرق - بلا شك - كبير بين الحالتين؛ كما أن الجهد المبذول في الاتجاه الجديد لن يكلف الكثير، إذا توافر الإيمان بجدواه، جنباً إلى جنب مع المبادرة والحكمة في التنفيذ.

ماذا أقول له؟!!

نزارية تحرض على الحب

■ فارس الروضان

لشعر نزار قباني نكهة، كنكهة البن.. وعطر، كأريج الخزامى.. حين تقرأ له نصاً تشعر أنك أمام بناء أندلسي.. احترنا أي نص سنقرأ إذ إن الخيارات أكثر من التصور، ولكن مركبنا رسى فجأة على رائعته "ماذا أقول"؛ فكانت هذه المحاولة، لقراءة المعاني لا قراءة اللغة.. محاولة لتبسيط النص..

بداية، يتميز هذا النص الجميل الإبداعي، إذ كان نزار ينقل شعور الحبيبة التي تعاني الهجر.. ويستعرض الصراعات المتتالية التي تعيشها، قبل أن تصل إلى القرار.. ثم يختتم النص برأي استثنائي عن الحب..

ماذا أقول له لو جاء يسألني...

إن كنت أكرهه أو كنت أهواه؟

(ماذا أقول له؟) بداية استفهامية مملوءة بالبراءة.. ماذا أقول له لوجاء يسألني.. وأي سؤال (إن كنت اكرهه أو كنت أهواه).. حيرة محب غارق في الهوى لا في الكره.. وحتى وان تسرب شك في الهوى، هناك محطات يخشاها هذا المحب، إن عاشها فلا مجال لغير الهوى ومنها..

ماذا أقول، إذا راحت أصابعه

تلملم الليل عن شعري وترعاه؟

هنا أول المحطات.. (إذا راحت أصابعه.. تلملم الليل عن شعري وترعاه) ويبرز هنا الإبداع اللفظي.. والاستعارة المدهشة.. وكل ذلك تأكيد على أن المحب يعيش لحظة صعبة لاتخاذ أي قرار !!.. ثم تتواصل الأسئلة..

وكيف أسمح أن يدنو بمقعده؟

وأن تنام علي خصري ذراعاه؟

الاستفهام (وكيف اسمح) إبراز لحجم الحيرة، فأحيانا نملك القرار، ولكننا لا نملك القدرة على اتخاذه! ثم يتواصل الوصف (وأن تنام علي خصري ذراعاه) لاحظوا هنا التلاعب في الألفاظ وتصوروا رسم المعنى.. (ذراع) يغفو على خصرها فكلمة (تنام) إبهار في المعنى وعمق في الخيال

غداً إذا جاء.. أعطيه رسائله

ونطعم النار أحلي ما كتبناه

هنا يحدث تحوّل.. وإصرار على اتخاذ القرار.. في محاولة للخروج من المؤثرات بإبعاد الرسائل ثم (ونطعم النار أحلى ما كتبناه) أنها محاولة غير صادقة، وإلا لماذا لا تطعم النار من دون حضوره؟ غير أنها حيرة وقرار يتوهمان بالميل إليه، ثم تتواصل الأسئلة..

حبيبي ! هل أنا حقا حبيبته؟

وهل أصدق بعد الهجر دعواه؟

اذاً.. بدأت الأسباب تتضح.. إنها تعاني الهجر.. ومع ذلك هي تقول (حبيبي)، ولكن هل حقا هي حبيبته؟ وإن كانت كذلك هل سيسمح لها الهجر بتصديق هذا الادعاء؟

أما انتهت من سنين قصتي معه؟

ألم تمت كخيوط الشمس ذكراه؟

ويستمر سيل الأسئلة في الجريان.. بيد أن الحبيبة، وهي تتساءل لإقناع نفسها بانتهاء القصة، تتجه لضرب مثل هش.. مثل يبعث الأمل ولا يقطع الرجاء.. فخيوط الشمس لا تموت فهي، وان خنقها الظلام، ما تلبث أن تمتد وتشرق وتبسط حرارتها على الكون.

أما كسرنا كؤوس الحب من زمن

فكيف نبكي على كأس كسرناه؟

ثم تحاول الحبيبة التأكيد على أن الحب قد كسر، وما الفائدة من البكاء على ذكرى كأس كسرت؟ وكل ذلك محاولة للتعلق بعذر هش..!!

رباه.. أشياؤه الصغرى تعذبني

فكيف أنجو من الأشياء رباه؟

وهنا يبدأ الصدق.. رباه.. استعانة بالله وعلى ماذا.. على الألم الذي يقتلها أو يكاد.. فبافتراض أن كل الرغبات، كانت جادة للرحيل والنسيان.. ما العمل بالأشياء الصغيرة التي تشعل حبها كجمرة يوقدها الريح؟.. استجداء للنجاة ولكن أين النجاة؟!

هنا جريدته في الركن مهملة

هنا كتاب معاً.. كنا قرأناه

ويبدأ الحصر.. جريدته، ولاحظ كيف الوصف: (في الركن مهملة).. كأنك تشاهد صورة حية، لموقع تشير إليه.. (هنا كتاب) معاً كنا قرأناه.. إنها حالة تلبس واستسلام

على المقاعد بعض من سجائره

وفي الزوايا.. بقايا من بقاياه..

ويتواصل الحصر، وتعقب أشياؤه كلها.. بعض السجائر.. وفي الزوايا بقايا من بقاياه.. وصف في غاية العذوبة، وتلاعب خطير في المفردات.. وتصوير حالة الحب التي لم تكتفِ بالبقايا بل بحتى بقاياه..

مالي أحدق في المرآة.. أسألها

بأي ثوب من الأثواب ألقاه

وتنهار الحبيبة، بعد كل المحاولات الهشة للهروب.. فما فات من مقدمات ليس سوى حديث اللسان، وليس حديث القلب وها هي تستسلم وتتفقد نفسها للقاء !!..

أأدعي أنني أصبحت أكرهه؟

وكيف أكره من في الجفن سكناه؟

إذا انتهى زمن التلميح وجاء الإعلان الصادق كسيل هادر.. (أأدعي أنني أصبحت أكرهه)، نعم فكل ما تقدم هو ادعاء وتعترف أنها (كيف تكره من في الجفن سكناه)؟

وكيف أهرب منه؟ إنه قدري

هل يملك النهر تغييرا لمجراه؟..

وتبدأ بإيجاد المبررات، باعتبار أن الحب هذا، ليس سوى قدر، لا يمكن لها التحرر منه. ولزيادة الإقناع كان أن جاءت بمثل (هل يملك النهر تغييراً لمجراه)؟!!..

أحبه.. لست أدري ما أحب فيه

حتى خطاياه ما عادت خطاياه

بيت لا يحتاج إلى مزيد من التعليق وإن كان ما يليه يملك الإجابة

الحب في الأرض.. بعض من تخيلنا

لو لم نجده عليها.. لا اخترعناه

نعم.. وهذا البيت هو من أجمل ما كتب في الحب على الأقل برأيي الشخصي..

وبهذا الإبداع والمطر، ينهي نزار ملحمة الحب أو ملحمة الصراع، بين القلب والعقل.. بين الحب واللا حب.. بين الممكن والمستحيل..

إنه نص أعظم من أن نقف عند أطرافه.. نص خلاق.. مبهر.. يجعل الشعراء يعيدون النظر في شعرهم، كلما فكر أحدهم أن يكتب عن الحب كما كتب هذا الدمشقي..

وقفات ..

■ عمر محفوظ

مع الإبداع الأدبي

مع التجربة الشعرية في المملكة العربية السعودية، تكون العلاقة بين الإبداع والثقافة والمجتمع، علاقة متداخلة ومعقدة، لا تدرك، إلا بحاسة نقدية نافذة ومدربة. وبما أن العمل الأدبي هو إدراك جمالي للواقع، الذي نعيشه من طفرات اقتصادية وأدبية واجتماعية غيّرت تغييراً جذرياً في بنية الحياة المجتمع وما قادت إليه من أنماط سلوكية واتجاهات في التفكير والإبداع، فإن أي إبداع أدبي، لا بد أن يتحرك في مجالات ثلاثة: المجال الزمني، والمجال المكاني، والمجال الجمالي. ويجب أن يكون همُّ الناقد، التركيز على تجليات الوعي الكلي والتشكيل الجمالي لهذه الرؤية، التي تتفاعل مع ثقافة العصر الذي يعيشه، ومع نسيجه الاجتماعي الذي يحياه

ولعلنا نلمس أن التجربة الشعرية، منذ بدايات العصر الحديث، قد مرت بمراحل ثلاث؛ من الإحياء والبعث، إلى الرومانسية والوجدان، إلى التجديد والتغيير. ونرى أنه ليس ثمة فواصل كبيرة بين هذه المراحل.

أما الدراسات، التي عُنيت بالتركيز على جماليات القصيدة العربية؛ فإنها تناولت قصيدة التفعيلة؛ منظّرة لها ومحدّدة أشكالها، كما هو الحال عند نازك الملائكة أو عز الدين إسماعيل وصلاح فضل؛ ونلاحظ في كتاب جماليات القصيدة المعاصرة للدكتور طه وادي، أنه قارب بين الإحيائيين والرومانسيين والحداثيين، عبر نماذج

شعرية، تبدأ من الزبيري في اليمن، وتنتهي بأمل دنقل في مصر،

ومن الجدير بالذكر هنا، فيما يتعلق بالتجربة الشعرية السعودية، دراسة الدكتور عبد الله الحامد، والدكتور عبد الله الغذامي، ود حسن الهويمل، ود محمد صالح الشنطي في كتابه القيم التجربة الشعرية الحديثة في المملكة العربية السعودية دراسة نقدية رؤية وشهادة، وهو من ثلاثة مجلدات، ولعلها الدراسة المتكاملة حتى الآن من النواحي الثلاث: المنهج والأسلوب والهدف.

وكانت بداية الحداثة، مع الأستاذ محمد حسن العواد، من خلال تجربته المبكرة، لكسر عمود الشعر في بداية العشرينات (١٩٢٤م)، بعنوان: "خطوة الى الاتجاه العربي":

لقد آن أن تستحيل المدامع

لنعش روح الأمل

ثم الق بها نظرة للنجوم

نريك أشعة نجم

يضئ بليل بهيم

أما مخاض السبعينات، فنرى الشاعر محمد العلي، حيث توافرت عوامل عدة، ساعدت على ولادة تيار جديد في استقبال التجربة الشعرية، من الطلاب العائدين من الدراسة في الخارج، أمثال: د. منصور الحازمي، ود. عزت خطاب، ود. محمد الشنطي. وفي توسيع دائرة تقبّل القارىء للنص الأدبي، عند الشاعر د. غازي القصيبي، والشاعرة د. فوزية أبو خالد وعند الشاعر سعد الحميدين، وأحمد الصالح، وعلي الدميني، ومحمد الثبيتي، وغيرهم من جيل السبعينات. وحقا كان للأديب الناقد محمد العلي، أهم مركز تأثير محلي، لتطور القصيدة السعودية.

مع الغذامي رائد النقد العربي الحديث

لا يمكن لنا أن نغفل مع التجربة الشعرية الحديثة في المملكة، رائد النقد وشيخ النقاد العرب الدكتور عبد الله الغذامي، صاحب الإنتاج الغزير، بداية من الخطيئة والتكفير، إلى النقد الثقافي؛ إذ حدّد في مقدمة كتابه الأول"الخطيئة والتكفير" منهجه ونَفَسَه، في تناوله لأعمال التجربة الشعرية؛ فيقول:

(ولذلك احترت أمام نفسي، وأمام موضوعي، ورحت أبحث عن نموذج أستظل بظله ومحتمياً بهذا الظل، عن وهج اللوم المصطرع في النفس، كي لا أجتر أعشاب الأمس، وأجلب التمر إلى هجر..).

إلى أن قال: (وخير وسيلة للنظر في حركة النص الأدبي وسبل تحرره، هي الانطلاق من مصدر ه اللغوي).

دون إغفال ثقافة المتلقي للنص الأدبي، أي القراءة الحرة القائمة على النظام السيميولوجي المختلف، والتي تتحرك داخل النص كالسراب: " نظريته التشريحية "، إلى أ ن وصل بالتجربة الشعرية بالمملكة، إلى النقد الثقافي في كتابه: " النقد الثقافي قراءة في الأنساق الثقافية "؛ حيث أوضح فيه د. الغذامي أن النقد الثقافي فرع من فروع نقد النصوص العام، ومن ثَمَّ فهو أحد علوم اللغة، التي تقوم بنقد الأنساق المضمرة، الني ينطوي عليها الخطاب الثقافي، بكل تجلياته وأنماطه وصيغه

ومهمة النقد الثقافي، كشف المخبوء من تحت أقنعة الكلمات، ومجاله النص، الذي يحمل النسق الثقافي للمجتمع

بين حب العمل وواقعه

■ عقلا فالح الفهيقي - الجوف

العمل أمر مقدس، حثت ورغّبت به جميع الشرائع والأديان السماويه.. وقد جاء الإسلام وجعل العمل من أقدس واجبات المسلم الحياتية؛ وأمراً يتعبد به العبدُ الصالح ربه تبارك وتعالى. قال تعالى: ((وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون)). وهذه الآية الكريمة، فيها حث ليس فقط على العمل، بل على إتقانه سواء كان عملاً روحانياً متصلاً بالعبادات، أم عملاً يقوم به المرء، ليقتات منه وينفع به المجتمع..

وقد رغّب الإسلام بالعمل وحث عليه بآيات كريمة، ونصوص من السنة المطهرة، قال ﷺ: (من بات كالاً من عمل يده بات مغفوراً له)؛ فأي كرامة بعد هذه الكرامة للمرء المسلم.

وفي العمل والمحافظة على وقته نهضة الأمم وبناء الحضارات؛ ولا عجب فقد كان شعار الثورة الصناعية في أوائل القرن التاسع عشر هو (دعه يعمل دعه يمر) وبالتالي فنحن كمسلمين أولى بأن نكون مثالاً يحتذى به في حب العمل والمحافظة على وقته؛ ونعد ذلك عباده نتعبد اللهَ بها.. ونحصل على أجري الدنيا والآخرة.

إلا أن الملاحظ، وبكل أسف، هو غياب هذا المفهوم لدى بعض الناس في مجتمعاتنا، والربط الدائم بين واقع العمل وحبه.. فكثيراً ما نبرر، في عالمنا العربي، الغياب المتكرر عن العمل، وعدم الإنتاجية أثناء التواجد في مقر العمل، والتذمر، أقول كثيرا ما نبرر ذلك بالوضع الوظيفي، والراتب المتدني، أو الدرجة الوظيفية، أو التأخّر في الترقية.. وغير ذلك من التبريرات، التي لا يقرها الدين



الحنيف، ولا يجب أن يقبلها المسلم على نفسه؛ فمن أخذ الأجر حاسبه الله على العمل... ولو عمل أحدنا في صخرة صماء، لأظهر الله عمله للناس وهذا يعزز مفهوم الإخلاص في العمل، وكيف يرتقي بصاحبه إلى مواقع متقدمه؟

ولا ننكر أن هناك بعض الأخطاء والممارسات تقع هنا وهناك على بعض العاملين، في مختلف مواقع العمل، التي تكون غير مقصودة غالباً.. ولا ننكر أن كل عامل أو موظف لديه طموح، وهو غالباً يقارن نفسه بالآخرين، وهذا حق مشروع للجميع؛ ولكن المؤكد أن تلك المطالب، لا يجب أن تكون أبداً مبرراً للكسل والتراخي، وإهدار الوقت وضعف الانتماء للعمل.. فكلٌ ميسرٌ لما خلق له ولكن يجب بذل الأسباب.

ويكفي العامل في شركه أو الموظف في قطاع حكومي شرفاً وعزة، أن يشعر بالرضا عن نفسه، أولاً وقبل كل شيء، وشعوره بأنه إنسان منتج في منظمته (مؤسسته)، وأنه إنسان فاعل، وذوا إسهامات إيجابية، وبهذا فقط ستشعر أنك معادله صعبه في عملك!!! وليس مجرد رقم جامد لا يُفاد منه.. وهنا مطلبنا دائما وأبدا بالتفريق بين حب العمل وواقعه؛ فأنت تحب العمل لقيمته في أي شركة أو مؤسسة؛ فالحب هو الحب أينما كان، وإذا ترسخ هذا المفهوم في أي منظومة مجتمعيه سيكون له أبلغ الأثر في رقيها وتقدمها نحو التطور والإنتاجية.. وبهذا ننافس الآخرين بأناس يحبون العمل ويقدسونه ويعتبرونه قيمه في أي مكان. وبهذا فقط سنرتقي وسنكون ذوي فاعليه وكفائه في الأداء.

والمورد البشري المحب للعمل والمتشبع بهذه الثقافة هو خير سلاح للتقدم الحضاري والمنافسة الحقة ولا يتأتى ذلك إلا بخطوات جبارة نحو التثقيف المركز من الجميع، من خلال وسائل إعلام مرئية ومسموعة وكتب علميه..لنشر ثقافة حب العمل كقيمة، والتفريق بين واقع العمل وحبه.

ونلاحظ أن بعض الناس يمارس مهنة بسيطة، وتدر عليه دخلاً قليلاً، ولكنه يحبها ويبدع فيها! وقد ينبثق من هذا الحب شيء مهم يفيد المجتمع، وما أحوجنا لذلك في وقت تقدم علينا الآخرون بترسيخ هذا المفهوم ومأسسته في ثقافتهم، ونحن أولى بذلك؛ إذ إننا أمه ذات حضارة ومجد تليد، وما علينا هو فقط استشعار المسؤولية، وأن يعلم كل فرد في هذا المجتمع أنَّ عليه مسؤوليه أمام الله وأمام ولاة أمره، في تعجيل المركبة وإسراع المسيرة نحو التقدم، من خلال إخلاصه في عمله وتنمية الرقابة الذاتية النابعة من استشعار المسئولية بضمير حي ويقظ.. وهذا كله بفضل الحب؛ فالحب أينما تضعه فهو جميل وينبت ويثمر وروداً وأزهاراً ونهضة كبرى..

الشاعرة فوزية أبو خالد:

قصيدة النثر أثبتت أن شكلاً شعرياً جديداً طالما جرى التشكيك في مشروعيته استطاع استيعاب الموروث الشعري

■ حوار/ رئيس التحرير

لم تُثر تجربة شعرية في المملكة العربية السعودية والخليج العربي لبساً، في تلقيها، وتبايناً، في نقدها، مثلما أثارته تجربة الشاعرة السعودية فوزية أبو خالد، وعبّرت عنه في مسيرتها الشعرية، التي تمتد لأكثر من ثلاثين عاماً.

إذ بقدر ما تعبّر تجربة الدكتورة فوزية أبو خالد عن نفسها بكثير من الصور، انطلاقاً من تجربتها المميزة في الكتابة والإبداع لمختلف أشكال الكتابة الإبداعية، بقي الشعر هو الغواية الأولى، واللون الأدبي المفضل للشاعرة فوزية.

فمنذ انطلاقتها الشعرية، عبر مولودها الشعري الأول، ظلت فوزية وفيّة للشعر، تُخرج من خزانتها المليئة بالأسرار والأسئلة، قصائدها التي تلوّنُ المشهدَ الشعري، وتزيده تألقاً.

غنَّت في قصائدها، وفاجأت قراءَها، بلغة رشيقة معبرة في بعض قصائدها، وجاءت بقصائد مكثفة، حيناً وبقصائد مطولّة أحياناً أخرى. تجيء حاملة في قصائدها كل الذكريات الحميمة، لتستعيدَ الخنساءَ وكأنها ترثي بقصائدها كل الأعزاء، الذين افتقدناهم في مرحلة ما من حياتنا، لنعود معها نتذكرهم، ونعيش معهم في حلم لا ينتهي مع قصائدها.

وعلى الرغم من تجارب الشاعرة الإبداعية، التي تتجاوز الشعر، إلى كتابة المقالات السياسية والإبداعية والكتابة للأطفال؛ آثرنا أن نتحدث في حوارنا إلى الشاعرة الكبيرة الدكتورة فوزية أبو خالد، عبر مفاصل تجربتها الشعرية وتحولاتها، والمرحلة

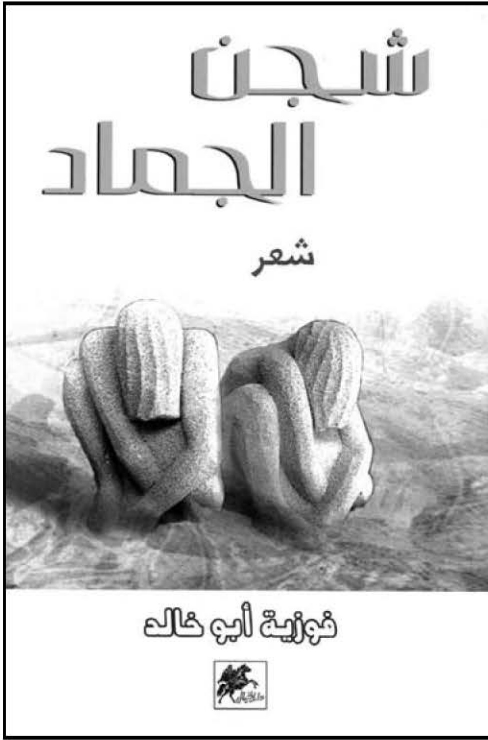
الفاصلة بين ديوانها الأول: "إلى متى يختطفونك ليلة العرس" وديوانها الأخير "شجن الجماد"، بوصفهما من أهم التجارب في حياة الشاعرة، ويمثلان السمة التي ميزت مسيرتها الإبداعية، وطبعت صورتها على خارطة الشعر، وعلى الخارطة الثقافية في المملكة والوطن العربي، كرائدة لشعر النثر.

وفيما يلي نص الحوار:

● مفاصل التجربة الشعرية وتحولاتها عند فوزية أبو خالد، كيف تنقّلت؟ وكيف ترين هذه المرحلة الفاصلة بين ديوانك الأول: "إلى متى يختطفونك ليلة العرس" وديوانك الأخير "شجن الجماد"؟.

■ اسمح لي أن أسمي ما تسميه أنت بتمرحل تجربتي الشعرية من ديواني الأول إلى ديواني الأخير، الذي ليس بأخير بإذن الله، بتحولات الريح، أو رحلة الحفر في جوف الصحراء ورمالها، بحثاً عن مفاجأة الماء. وإلا، ماذا يعني أن تتجرأ بنت في الرابعة عشرة، لم تمد رأسها بعد خارج حجر هضبة نجد وجبروت سلسلة سروات الحجاز، لتسأل ذلك السؤال الوجودي والاجتماعي الاشكالي: إلى متى يختطفونك ليلة العرس؟ لو لم تكن أحصنتها قد اكتسبت ملكة الجموح، في ذلك العمر المبكر، عبر مواجهة الارتحال، في فلوات غير مأهولة إلا بالمخاطر وشجاعة غرة، لمخالفة قانون الجاذبية، ولمخاتلة جبروت الجفاف!

لعل منّا من يتنكر، أو يستسلم لمكر الذاكرة، عندما نحاول أن ننسى أو نتجنب قيافة أثر تلك العلاقة المشيمية، بين ما يحمله الشعر في مراحله وأشكاله المتعددة من شهوة الماء، وبين إرثنا في حفريات الارتحال، حيث الهبوب وليس الاناخة، والسفر وليس الاستقرار، والقافلة وليس القبيلة هي الوطن. وحيث السؤال وليست الإجابات المسبقة أو اللاحقة، هو بوصلة قياس سرعة الريح واتجاهاتها،



إن أمكن، ودرجة الندى في التراب.

فلولا دهشة السؤال، التي تزداد أوراً وتوهجاً وحرقة، كالزيت في النار، كلما تعرضّت عربة العمر لمزيد من الملاحقات. ماذا كان سيدفع أو يشفع لامرأة صهرتها حرائق الحبر إلى اقتراف شيطنة البنات واستراق السمع لشجن الجماد؟ كانت مرحلة "إلى متى يختطفونك.." مرحلة الأحلام التحررية الكبيرة، التي حاولت بجسدي الطفل النحيل، المزاحمة للمشاركة في حملها مع جيل الأمهات والآباء، مع ما حاول جيلي إضافته من الملح والجرح على تلك الأحلام. ولهذا، فلربما يمكنني، وقد صارت تفصلني عن ذلك الديوان العديد من السنوات، أن أحمل نفسي على التأمل، فأميل إلى الظن، أن قصائد ذلك الديوان، ربما لم تخلُ من التنكّر، حينها، لمرحلتي العمرية، بانشغالها بأسئلة المرحلة التاريخية، في بعديها الثقافي والسياسي؛

ولهذا، فلربما لم يكن الاختيار المتعمد والمعاند لكتابة قصيدة النثر، في ذلك الوقت الذي كانت تعد كتابتها، وخاصة في مجتمع مثل المجتمع السعودي، خروجاً على المقبول والمستتب، إلا تعبيراً عن انحيازي في الشكل الشعري، على الأقل، لرؤية لا تصدع لغير طموح أو بالأحرى جموح ذلك الجيل، الذي ودّع طفولته على فجيعة النكسة. وإذا كان ديوان "قراءة في السر" قد خرج من معطف رعب الاجتياح الإسرائيلي للبنان وبركان الحرب اللبنانية وذهول العالم العربي وصمته أمام وقع الكارثة؛ فجاء يحمل هذيانَ وصمتَ الصدمة، بتشظي تلك الأحلام الكبيرة، وانشكاك شظاياها في حبالنا العصبية؛ فإن ديوان "ماء السراب" حاول الاستشفاء من الخيبات وهيبتها، التي حاصرتنا، من احتلال الكويت، إلى إطباق التحالف على رقابنا، في محطات أسلو وملحقاتها، بالترياق المستحيل، وهو حرية الشعر ليس إلا؛ فهل تظن أفدح من مطلب تلك الحرية؟

● يلاحظ المتابع لنصوص فوزية خلال مسيرتها الشعرية، ما يمكن تسميته بالغموض الشعري في البدايات، من خلال ديوانك الأول "إلى متى يختطفونك ليلة العرس" ثم "ماء السراب" ثم "مرثية الماء" وصولا إلى "شجن الجماد"، إذ يفاجأنا الديوان، بحميمية ولغة شفافة، تصلان بشكل واضح للقارىء.. فهل تولّد هذا نتيجة نضج شعري، وهدم يقين كان متأثراً بشعارات الحداثة، في مراحل سابقة؟ أم أن ذلك نتاج تجربة حياتية؟ أم ماذا؟!

■ هل يحاول هذا السؤال أن يمكر لي أو بي؟ أم أنه يُسائل العبور العابر للحداثة الإبداعية بمضارب القبائل المنقسمة بين الاستقرار وبين الارتحال المتأرجحة بين ما كان وبين ما قد يكون؟ كأنك بهذا السؤال، تقدّم لي صكاً مفتوحاً، على طريقة الشيك المفتوح، لأوقّع براءتي من الحداثة، أو براءة الحداثة، مما أبيح من دم شعري. وهذا كما تعلم، ليس فعلاً يليق بطيش الشعر، إذ إنني لا أرى في الحداثة تهمة، يجب دفعها أو التنصل منها. وموضوع الحداثة، سواء ما اقتصر اختزالاً على الحداثة الإبداعية، أو ما شمل الحداثة بمعناها الابستمولوجي والاجتماعي، وسواء اقتصرنا تناوله كمنتج غربي، أو فكّكنا بعض مكوناته، كمنتج ذا بعد حضاري، في علاقتنا الإشكالية به؛ فهو موضوع لا يمكن تضييق زاوية طرحه، في الغموض الشعري. ثم إن هناك التحولات التنظيرية لما بعد الحداثة، التي تتأسس على عملية المحو المتعمد للحدود الفوقية التي طالما حكمت وحاكمت الفضاءات الثقافية المختلفة. ولست أدعي محايدة محوها. على أنه وبعيداً عن كل ذلك، أو قريباً منه، أسمح لي أن أسجّل إفادتي المباشرة على سؤالك، وهي أنني لم ألحظ يوماً أن شعري في دواويني الأولى، كان يتسم بالغموض؛ كما أنني لا

لم ألحظ يوماً أن شعري كان ليتسم بالغموض..!!

بيز

ليس إلا القلة سمعوا باسمي
قبل أن أدخل القصيدة
وأصير راية ترف
فلستُ إلا بقايا قصاصات
أقمشة ملونة
جمعتني الصدفة
لأقي أكف النساء
اشتعال الأوعية
بعد ابتعادها عن النار

أظن أن شعري في دواويني اللاحقة، يتسم بالوضوح، أو حتى بتلك الشفافية، التي قد ترشي القارىء، لأول وهلة، ولكنها، كأي غلالة رقيقة لفعل عشق شرس، ما يلبث أن يجرفنا على حين غرة في اللحظة التي قد نظن أننا نمسك بزمامه، بينما ليس من زمام له. وفي هذا السياق، فإن شعري في السابق واللاحق، إن صح أن أقول رأيي حوله، يُحاول ألا يكفَّ عن التحولات، وألا يُفرط في حس المغامرة ومباهجها، الشفيفة والغامضة معاً.

● للماء حضوره عند كثير من الشعراء، كما هو لدى سعدي يوسف بحيرات وأنهار، وعند بعضهم يأتي الماء بصور مختلفة.. إلى أي المصبات تفيض المياه عند فوزية أبو خالد من ماء السراب إلى مرثية الماء؟!..

■ منذ طفولتي، يتكرر الماء في أحلامي وفي كوابيسي في الصحو والمنام، بعدة أحوال؛ فمرة يكون ينابيع عسل، ومرة يكون سماً فواراً ؛ مرة يكون شلالات لبن، تخرج من جوف الصحراء ، ومرة يكون غديراً خجولاً ؛ مرة يكون طوفاناً خطافاً، ومرة يكون بحراً؛ ومرة يكون بئراً ليس لها قرار أو قربة ماء؛ ومرة يكون مطراً، ومرة يكون نوافيرَ تندفعُ تارةً من الصخر وتتلوى تارةً أخرى مع تموّجات السراب! وأستطيع أن أُحدِّد، بالصوت والصورة، ارتباط كل شاردة وواردة في حياتي، من مشيي الأول، إلى يومي الأول بالمدرسة، إلى ليلة عرسي، وأشهر حملي، إلى صباحات انتصاراتنا العربية الشحيحة، أو لواعجي الشخصية، أو عتمة الهزائم العامة بانهمار الماء.

فالماء امرأة، والماء وطن، والماء دورتي الدموية، في شعر امرأة، لا تستطيع، وإن عاشت في المدن، أن تخرج على عشق المفاوز والفلوات وأفلاك البيداء.

● في مرثية الماء كنت ترثين أخاك محمداً بتلك القصيدة الطويلة، التي شكّلت كامل الديوان في تجربة من التجارب القليلة، إن لم تكن النادرة، في إدخال باب الرثاء بهذا النفس التفجعي الطويل، إلى شعر قصيدة النثر. فهل أردت بقصيدة النثر أن تضاهي شعر الخنساء العامودي الجزيل، في القدرة على الرثاء كما فعلت الخنساء مع أخيها صخر؟ وهل يمكن أن تكشفي لنا موقع أم محمد، في قصيدة مرثية الماء، حيث لم يفارق محياها ذلك الديوان، من صفحة الغلاف الأولى إلى ما بعد الصفحة الأخيرة؟ كنت ترثين محمداً في قصيدة مطولة غير مصدقة أنه غادر إلى مكان آخر، وفي شجن الجماد، كتبت قصائدك وكأنك صدقت أخيراً عن طريق محاكاة اشيائه وترجمة مشاعرها.. كيف تولدت لديك هذه القصيدة الطويلة التي تشكل الديوان؟

■ أحمد الله أن هذا السؤال السيامي، من أسئلتك المسنونة، قد لا يكون من الممكن فصله جسدياً، دون ضمانات أن لا تعمل أي جراحة يتعرض لها على فصل التعالق الروحي بين حدَّيِّ السؤال.

إنك في الشق الأول من السؤال تطرح تساؤلاً، كثيراً ما وجّهه إليَّ عدد ممن قرأوا الديوان قراءة نقدية، لم يكفها الانشغال بالديوان كقصيدة وحسب؛ بل حاوره، على ما يبدو، كحالة شعرية محملة باحتمالات جديدة، لاكتشاف مجاهل لم تكن مطروقة من قبل، كالرثاء مثلا. بما يفصح عن طاقات كامنة في قصيدة النثر، لا تحد فضاءاتها على تعاطي اليومي والعادي، وتحويله إلى شعر، كما أكتفى بكتابتها وقراءتها في ذلك الحيز عدد من الشعراء والنقاد.

وقد يكون السؤال مردّه نوع من السرور السري، الذي قد يساور بعضنا حين نحس أن شكلاً شعرياً جديداً، طالما جرى التشكيك في مشروعيته، استطاع أو يستطيع، استيعاب بعض من موروثنا الشعري، باستيعابه لبعض أو كل أغراض الشعر التقليدية

ملكة الشعر ليست حكراً على الرجال أو النساء

المعروفة تاريخيا كالمديح والهجاء أو الرثاء؛ على أنه لا بد من ملاحظة أن السؤال ليس سؤال مضاهاة قصيدة الخنساء العامودية في الرثاء بقصيدة نثر في الغرض نفسه؛ ولكنه السؤال الوجودي والشعري والإنساني، الذي دون أن يأبه كثيراً بمواقف النقاد الموضوعي أو حراب الحراس المنحازة، ليس له إلا أن يعيد طرح نفسه، ممتشقاً رؤىً وأشكالا جديدة للسؤال. أما ما أتطوع لأجيبك عليه، مما لم تسألني عنه مباشرة، ولكنه جاء سؤالاً مفخخاً، في هذا الفرع من السؤال، فهو السؤال النسوي في قصيدة

دلة القهوة

أستمتع برائحة البن والهيل
بكل حواسي
أترك عبيرها النفاذ ينكّل
بالذاكرة
فتشقني نصفين
أنفاس اليد التي
شقت التربة
والأفواه التي اشتهت
الفاكهة السوداء
وأحضان الأثواب الرثة
التي التقطت القطاف
والنار التي حوَّلت الحبات الخضراء
إلى عيونٍ داعجة تلتمع في ظلام الوعاء
بينما لا يحتسون من جروح تلك لرائحة
إلا رشفة المرارة

الرثاء، سواء ما كتبته الخنساء، أو ما كتبته فوزية أبوخالد، في مرثية الماء.

ودون أن أخوض في فلسفة السؤال وفروضه المضمرة، أقول لك ببساطة: إن ملكة الشعر في الرثاء بما يتعلق بهذا السؤال، تحديداً، ليست حكراً على النساء أو الرجال؛ لأن حس الفقد وقسوة الفراق ليست مشاعرا تخضع لمعايير النوع الاجتماعي (أنوثة وذكورة)، ولكنه قد يكون في هذا الموضع بالذات من التمييز الايجابي الذي أنعم به الله على المرأة، على الرغم من ما تتعرض له طوال دهور من التاريخ الاجتماعي من تمييز عنصري سلبي، إذ حباها الله وحدها بأن تنعم بملذات وعذابات الحمل والولادة، والقدرة على البكاء أو التفجع، والتعبير بحرية عن الذات، على ما في ذلك من فعل إنساني جميل ونبيل. و"لأزيدك من الشعر بيت"، فإن هذه القصيدة لم يكتف بمقارنتها بقصيدة الخنساء، بل جرى ربطها بمراثي فدوى طوقان لأخيها إبراهيم طوقان، كما سمتني بها الصحافة العُمانية "خنساء الجزيرة العربية الجديدة"، عندما ألقيت لأول مرة بمهرجان الخنساء الشعري بمسقط في عُمان ١٩٩٩م، وكان مهرجاناً شعرياً ضم عدداً كبيراً من الشاعرات العربيات ، فدوى طوقان / فلسطين ، ولميعة عمارة / العراق ، وملك عبدالعزيز وعلية الجيار/ مصر، وفوزية السندي/البحرين/، وسعيدة خاطر/عُمان؛ وحضور عدد آخر من الشاعرات والشعراء. وقد طرحت تلك المقاربة والتسمية بسؤال: كيف لم يستعصِ على النساء في أي من القصيدة العامودية وقصيدة التفعيلة وقصيدة النثر تحويل الرثاء إلى حالة شعرية إنسانية؟

أما بالنسبة للشق الثاني من السؤال، فاعلم أن أم محمد هي من كتب هذه القصيدة بأعقد وأشف وأقسى وأصعب وأشرس وأرق مما جاء في ديوان

لقبتني الصحافة العمانية «خنساء الجزيرة العربية»

مرثية الماء بملايين المرات. وأم محمد لم تكتب هذه القصيدة بعتمة الحبر، أو ضوء شاشة الكمبيوتر كما فعلت، ولكنها كتبتها بمطر عيونها وبدماء أوردتها وشرايينها الدقيقة. كتبتها بشموخها وبسجودها، كتبتها بنخاع عظمها وبهواء رئتيها، كتبتها بصحوها وسهرها، بسواد يأسها وببوارق آمالها في الشاب المسجى على حجرها عشرين عاماً، الناهض من أحلامها بعدد أوقات الشروق طوال عقدين من الزمان. فهل رأيت ريشة يُكتب بها الشعر أمضى وأشد رهافة من ريشة النزال السرمدي الشرس بين الموت والحياة.

لقد كتبت في أحد قصائد ديواني ماء السراب اهداء لأمي قلت فيه: "إلى نور التي انتحلتُ شعرها وحزنها وأحلامها لنفسي وكتبتها قصائد باسمي". ولذا فلربما كان نوعاً من القصاص الذاتي أنني

أصبت بعد مصاب محمد بجمود حجر أصم، فلم استطع أن أمارس مع أمي العاب الخفة، تلك التي كنت اسطو بها على شاعريتها، وأنسبها لي فلم أبكي ولم أكتب شعرا طوال ثلاث سنوات بعد رحيله، غير بعض المسوّدات البائسة. ولهذا ففي ديوان مرثية الماء، لم أستطع إلا أن أترك أمي تحرك روحي وأوراقي وأصابعي كما تحرك عاصفة طاغية الأشرعة، في محيط مائج متجبر؛ فتجري جسدها واندلاعات روحها في الأبجدية وتذهب بي أبعد مني. ومع ذلك لم تكن قصيدة مرثية الماء على رمزية موت الماء إلا تشبهاً بأم محمد في ملحمة صبرها وزهوها وهي تهاتفني بعد أن أغمضت عينيه بيدها وتقول بصوت يحمل رهجة الهزيمة والفوز



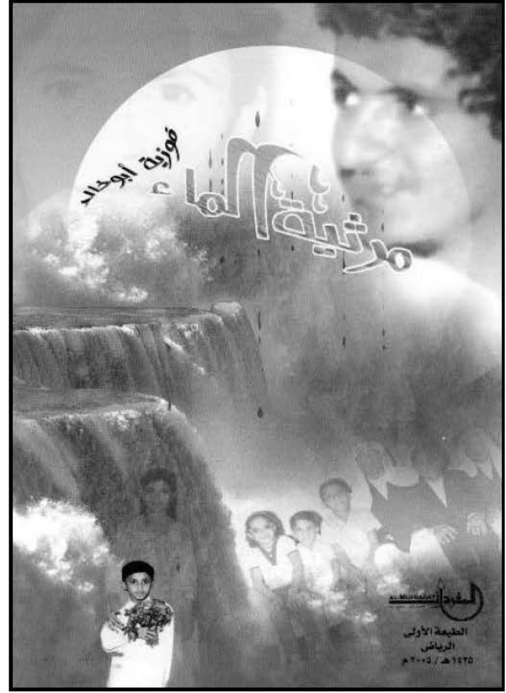
معاً: لقد حرّر اللهُ محمداً فاحضروا لتزفوه معي!

● في قصائدك وجعٌ دفينٌ، وإيحاءات بعيدة، تختزل تجربة عميقة، وحياة متعددة ومعاناة.. من أين تنطلق هذه القصائد؟

■ تنطلق هذه القصائد من ملح الأخيلة، ومن خبز الحياة، وبعض التوابل السرية الممزوجة بماء. كما تنطلق من كثير من تمارين الروح الشاقة، ورياضة الكتابة المهلكة. هذا عدا عن قبس الرمضاء، وسموم السياسة، وشهد الدهشة من حيوات وحالات عشق لم نعشها بعد، كأن تلمح جناح فراشة مغموس في الشمع أو في حوض زهر؛ فهل لا تظن أن هذه الخلطة المحيرة ليست كافية لتعطينا أرغفة الشعر أو توهم وهجه.

● بدات تجربتك الشعرية في مرحلة عمرية مبكرة، وأظهرت نبوغاً قل نظيره..ما الذي أوصلك إلى ذلك؟

لم أنسى تشجيع محمد حسن عواد وحسن آل الشيخ



■ أستحي من جرأة هذا السؤال على هذا الإطراء، ولكن ربما ما أوصلني لذلك، في ذلك الوقت المبكر، هو أسرة لم تمنعني، إن لم يكونوا نور وعبدالله وعمتي طرفة وموضي وعمي محمد وعمي عبدالعزيز وأخوالي: هاشم، وعلي، وحمزة، وجدتيَّ: سارة، وعائشة، وإخواني وأخواتي: محمد، وفيصل، وحسن، وأحمد، ونوال، ونها، ومشاري، وأنوار، و"بؤبؤ عيني" عبدالرحمن، وحسناء، قد أجتمعوا جميعاً، على تشجيعي على كل أشكال العشق الضارية. فمن عشق تراب هذه الأرض، وعشق الجمال والعدل، إلى عشق الكلمة والقراءة، وعدم التردد في التمرد على الجمود أو البقاء على الحياد، من حركة الحياة. كما لا أنسى دور معلماتي في مدرستي "المدرسة الابتدائية الخامسة" بحي الرويس بجدة (أبلة نها العبوة)، ومن مدرستي "المتوسطة الأولى" (أبله مواهب وأبلة مهجة من مصر، وأبلة ابتسام السقا ونبيلة الخماش من سوريا، وأبلة أحلام عزب من فلسطين). وكذلك دور صديقات الطفولة ومطلع الشباب، وإنّ بشكل غير مباشر، ولكن تلك العلاقات كانت تمدني بمساحات للركض البكر، في فلوات الحب والصداقة والعلاقات الإنسانية الحميمة، التي هي نسغ الشعر، وخميرة الاشتعالات، ومن رفيقات المدرسة: أمل خوجة، وفاتن كيال، ونورة الجميح، ونوف ومنيرة الفارس، وسميرة أسعد، وفريال جاد الحق، ونور المحضار، وأميمة الجوهري، وعفاف باحارث، ولميا باعشن، ونورة السديري، و"زينة طفولتي" مزنة المحمود. ولن أنسى في عمري الكتابي المبكر، تشجيع محمد حسن عواد، لي، والشيخ حسن آل الشيخ، ومحمد حسين زيدان، وحسين سرحان، وعبدالله جفري، ومحمد الشدي، وفاتن شاكر، وخيرية السقاف، وحمد الجاسر؛ ففي الصندوق القديم، الذي تحتفظ لي فيه أمي بعدد من دفاتر التعبير ومقالاتي الأولى في الإبتدائي والمتوسط، توجد رسائل سخيّة، كتبوها لي بخطوطهم السامقة، قبل أن أغادر مقاعد المدرسة.

وليس لي إلا أن أشكر هذا السؤال اللمّاح أو الفضّاح، الذي جرّني وورّطني، من حيث لا أدري، في الدخول الحميم إلى سجل صفحة خلتها طويت؛ فإذا بها حية مورقة بماء الذكريات الأولى، لمسيرتي الشعرية والكتابية.

● كيف تفسرين العلاقة بين شعرك، وبين الصور التي تنحتينها على شكل قصائد، وما هي العلاقة بينها؟

■ هل تظن أن هناك علاقة بين "وادي عبقر"، وتلك الأطياف والأشباح والأرواح الشريرة، أو الهامات المتظلمة، التي تهيم في بطاحه، فتزعزع سكونه بأزاميلها ومزاميرها، وتحوّل صمته إلى ورش عمل،



وعشق صاخبة أو هامسة، تقيم على وقعها بين عرائش العشرق والخزامى والعرفج، في قاعه السحيق، مواكب الأعراس والجنائز، تلك التي يتسامع الناس عنها بين مكذب ومصدق، بينما لا يعرف حقيقتها ولا يطّلع على أسرارها، إلا القوافل العابرة لكمين ذلك المكان، بعد منتصف الليل، أو بعض من بهم مسٌّ، أو عندهم طاقات خارقة على مآخات الجن؟

لو كان أي كان يستطيع أن يجيب بإيجاب نهائي، أو يعطي إجابة قاطعة، على هذا السؤال؛ فإنه عندها فقط، سيكون ليس لي إلا أن أحمل سؤالك محمل الجد، وأبدأ في محاولة البحث في السؤال.

إن سؤالك، سؤال صعب؛ فالصورة الشعرية، أعقد من تلك اللقطات التي لا يظهرها إلا التحميض في الظلام، وإن كان لا يمكن تبسيطها، أيضاً، بتلك العملية الخاطفة التي تقوم بها الكاميرا الرقمية، في تحويل مقاطع الصورة لوناً وحركة، إلى منحوتات متحركة، في أقل من لمح البصر، دون أن يجرؤ ضوء أو عتمة على محوها.

الصورة الشعرية أعقد من تلك اللقطات التي لا يظهرها إلا التحميض في الظلام..!!

● ماالفارق الذي كان به ديوان قراءة في السر يحمل شعراً صارخاً متفجعاً في قصائد طويلة، بينما جاء ديوان ماء السراب يحمل قصائد مكثفة، تتدفق برفق وعمق، وكأنه شعر لا يريد أكثر من أن يهمس بهمسة الرمال؟

■ الفرق، على المستوى الشخصي، هو فارق عمري، وعلى المستوى العام هو فارق تاريخي، بمعناهما الابستمولوجية والاجتماعي السياسي. كما أنه فارق في أفق وأدوات الإبداع الشعري،

السبحة

أكرُ وأفرُ بين باطن الأكف
وبين الأصابع
في حركة دائرية
وكأنني كواكب
تدور في فلك كروي
على ظهور أفراس
لا تكف عن الركض
نحو المجهول
ومن فرط الانهماك
في تجنب الوصول إلى نهاية
قلَّ من ينتبه إلى حرماني من
التسبيح

كان ديواني قراءة في السر خارجاً من لحظة تحولات صادقة على المستوى العربي

كتعبير عن الاستقلال النسبي للتجربة الإبداعية نفسها عن محددات المكان والزمان وفي اشتباكه النازع إلى الحرية في العلاقة بهما، وعدم التسليم بضيق شروطهما. فعلى مستوى تاريخي كان ديوان قراءة في السر خارجاً من لحظة تحولات صادمة على المستوى العربي، شكّلت دراميـة التشظي والانكسار العربي فيه سنة ١٩٨٢م، إضافة نوعيّة مرعبة، على ما عرف بنكسة حزيران عام ٦٧م، بما تمثل في الاجتياح الإسرائيلي لبيروت، وفي توسيع مساحة ذبح الحلم العربي من الوريد إلى الوريد، أي من المحيط إلى الخليج، وفي تحويل بيروت من عاصمة للثقافة العربية الحديثة، وواحة من حرية وبحر للمثقفين العرب، بمختلف التيارات الفكرية

الخنجر

على هيئة هلال رهيف
في سلام مع نفسه
كنت سأكون لولا هذا النصل
الذي أصابني في مقتل
فأخرجني من سكينتي
مثل ما خرج آدم وحواء
من الجنة
وصار عليَّ
ارتكاب الجرائر
والبطولات
لأجد معنىً لوجودي

والإبداعية، إلى مدينة للكوابيس والقناصة وأشباح تلوّح ببشاعات الحرب الأهلية على الهوية. كما أن ديوان قراءة في السر على مستوى شخصي كان منبعثاً من أتون مرحلة عمرية، كانت لا تزال مشبوبة بالتجربة الطلابية لتلك المرحلة من الاعتصام والمظاهرات والعنفوان والرؤى المتمردة.

أما ديوان ماء السراب؛ فعلى الرغم من أنه صدر بعد حرب الخليج الثانية، وتلك الانقسامات القاصمة، التي ضربت العالم العربي، ورغم أنه جاء بعد تجربة اجتماعية وسياسية وثقافية موجعة، تعرضت لها شخصياً، وتعرض لها جيل عقد كامل من المثقفين، كادت تحيل تعدد طيف الأصوات الإبداعية لتلك المرحلة إلى لون الرماد أو إلى رماد ، فإنه قد جاء أيضاً بعد تجربة الأمومة والعمل الاكاديمي والبحثي وبعد أن صهرتني التجربة بأسئلة العلاقة بين الحرية الاجتماعية للإبداع وبين حرية الإبداع نفسه. فلم أفعل في ماء السراب إلا محاولة جارحة، لاستعادة تلك البنت التي كان يلبسها القرين، إلى القرين وأطلق أفراسها بغير سروج في براري الصحراء، تسابق حلمها في الحرية. وإذ يقولون أن شدة القتال تصقل الأسلحة، فقد كان لي بعد تجربة ديواني الأول والثاني أن أدخل حواسي في أفق جديد لقصيدة النثر. ولا اظن أنه يصعب على المتابع لتجربتي الشعرية أن يلحظ ولعي بالتجريب، بمعناه الفني وشغفي المتعمد في طرق أفاق، ودق أبواب من الصور والمواضيع والموسيقى، لم يجر دخول قصيدة النثر إليها من قبل. فهل من يلومني إذا كتبت فأفليت، وأنا بنت الفيافي ورفيقة رشا شاردة وشموس معاندة.

● من الشعراء الذين أحببت شعرهم؟ وما هي التجارب الشعرية التي استوقفتك؟..... وفي رأيك من هو الشاعر الذي لم يأخذ حقه؟

■ كثير جداً جداً الشعراء الذين أُحب شعرهم.

أستطيع أن أعد بدر بن عبدالمحسن شاعراً من شعراء الشعر الحديث وإن كان يعد شاعراً نبطياً

من طرفة بن العبد، الذي اكتشفت به مبكراً حرقة ظلم ذي القرب، والخنساء التي جرى دمعها إلى ركبتيها مدراراً، وعنترة الذي ود تقبيل السيوف، وامرؤ القيس، وعمر بن أبي ربيعة، وزهير بن أبي سلمى، والشريف الرضي، ناهيك عن المتنبي الذي تعلّق قلبي بشعره، تعلّق فتاة غرة، فلم تعلمني الأيام، والتعرف على التجارب الشعرية الفارعة عندما شببت عن الطوق، إلا مزيداً من الافتتان به، إلى هموروس، وعمر الخيام، وناظم حكمت، وبوشكين، ولوركا، ويتييس، ونيرودا، وسلفيا بلاث، وفولتير، ووليم وليم، واليزبيث موزرال، ورستالا، إلى عدد من شعراء الشعر الحديث بالوطن العربي وبالمجتمع السعودي. ومن نازك الملائكة، وفدوى طوقان، وسلمى الجيوسي، ولميعة عمارة، وحمدة خميس، وأندريه شديد، وأمل جراح، وجمانه حداد، وأشجان هندي، وأمل موسى، ولينا الطيبي، وظبية خميس، وسعدية مفرح، وهدى الدغفق، ووغيداء المنفى، وميسون صقر، إلى السياب، وأدونيس، ومحمود درويش، وأحمد دحبور، وغسان زقطان، وراشد عيسى، وممدوح عدوان، ومحمد الماغوط، وعباس بيضون، وأمجد ناصر، ونوري الجراح، وسليم بركات، وعيسى مخلوف، وعبده وازن، وسيف الرحبي، وزاهي وهبه، وعلي الدميني، ومحمد الدميني، وأحمد فقيه، وعلي فقيه، وغسان الخنيزي، والثبيتي، وعبدالله الصيخان، وآخرين



بطبيعة الحال. هذا إضافة إلى الشاعر بدر بن عبدالمحسن، الذي وإن كان يعد شاعراً نبطياً؛ فإنني أعده شاعراً من شعراء الشعر الحديث، إن لم يكن بطبيعة الحال على مستوى الإيقاع، فبدون شك على مستوى العلاقة باللغة، والقدرة المبدعة على مباغتتها بالمفردات والصورة والعلاقات الجديدة بها وبما تعبّر عنه.

والحقيقة أنه قد يبدو من المضحك لي، على الأقل، أن يورطني هذا السؤال في أن أعدد كل هذه الأسماء "المعروفة"، وكأنني أستعد لنعي ذاتي؛ ولكن لتكن نوع من التحية لمن ذكرت، ولمن لم أذكر من الزملاء الأموات منهم والأحياء.

هناك بطبيعة الحال، عدد وإن كان ليس كبيراً، من التجارب الشعرية التي استوقفوني وتستوقفني (كتجارب شعرية وليس كقصائد وحسب)، وبعضها يمتد عبر العصور، وقد نمى بعضها معي وفي داخلي، في تداخل وتشابك حميم للأزمنة، ولعدد من الشعراء، ممن لم أكتفي بقراءة شعرهم، بل عكفت على الشغف بها، ومنها تجربة الشاعر قاسم حداد في تجلياتها المتعددة بما فيها إطلالتها الإلكترونية المبكرة.

أما سؤال من من الشعراء لم يأخذ حقه فإن هذا السؤال من تلك الأسئلة التي إما إنها تريد ان تقض مضاجع النقاد، أو أنها تريد أن تخوض في جروح الشعراء، وأرى أن أقرر به أن أضع حداً وأتوقف عن المضي في التواطأ مع وسواس هذه الأسئلة

أنفلونزا الطيور (Avian flu) أسبابها وطرق الوقاية منها

■ د. ماهر مفضي العنزي[1]
■ د. حسين إبراهيم البلبيسي[2]

يعد انفلونزا الطيور مرض معدياً تسببه فيروسات الأنفلونزا (ايه) (Influenza A Viruses). تشكل الطيور المائية المهاجرة- بشكل خاص البط البري- مستودعاً طبعياً لكل فيروسات الأنفلونزا (ايه).

وقد ظهر المرض لأول مرة في ايطاليا عام ١٨٧٨م، كمرض خطير يصيب الدجاج، وسمي بأنفلونزا الطيور أو طاعون الطيور. ثم ظهر بحالة وبائية للإنسان (فيروس إتش ١ إن ١) عام ١٩١٨م، وسمي بالأنفلونزا الأسبانية. ثم ظهرت الأنفلونزا الآسيوية عام ١٩٥٧م، (فيروس إتش ٢ إن ٢) ثم أنفلونزا هونج كونج عام ١٩٦٨(فيروس إ تش ٣ إن ٢). وأخيراً من عام ١٩٩٧ حتي يومنا هذا، ظهر فيروس الأنفلونزا بصفة وبائية بين الطيور وسمي باسم (إتش ٥ إن ١).

وهو فيروس قاتل للإنسان. وقد ظهرت أول حالة بشرية قاتلة في هونج كونج عام ١٩٩٧م. ويمكن القول أن حاجز الأنواع قد سقط إلى غير رجعة؛ ففي الماضي كان يعتقد أن الفيروسات تراعي حاجز الأنواع، بمعني ألا تتعدي على خصوصية مضيفها الإنسان أو الحيوان، الذي ترغب في النمو والتطور لديه؛ إذ إن فيروس

---

(١) وكيل كلية العلوم والمشرف على قسم علوم المختبرات الطبية بكلية العلوم الطبية التطبيقية - جامعة الجوف.

(٢) أستاذ مشارك بقسم علوم المختبرات الطبية وعضو هيئة التدريس بكلية العلوم الطبية التطبيقية - جامعة الجوف

علـــوم

أنفلونزا الطيور له القدرة على التبدل السريع، وهذا ما يمكنها من تغيير أشكالها بأقصى سرعة، وهذه هي الطريقة التي استطاع بها فيروس أنفلونزا الطيور (إتش ٥ إن ١) في شرق آسيا أن يتعرف بها على الخلايا البشرية ويدخل إليها.



فهذا الفيروس في الأصل لم يكن فتاكاً، بل كان يتضاعف عند البط البري دون أن يجعلها تصاب بأي مرض، وفجأة ودون سابق إنذار أصاب هذا الفيروس الدجاج، وبدأ يتغير ويتطور في خلاياها.

ويمكن لهذا الفيروس أن يحدث له طفرة جينية، ويصيب الإنسان بالطريقة التي أصابت الدجاج نفسها، وربما يكون لهذا الفيروس طريقة أسرع من ذلك تتمثل في التزاوج بين هذا الفيروس وفيروس الأنفلونزا، الذي يصيب الإنسان عند أحد الأشخاص؛ وهناك ستقع الكارثة.

ويمكن للفيروس أيضاً أن يقوم بهذه العملية عند الخنازير، حيث يمكن للخنزير أن يحتضن الفيروسين على شكل فيروس من نوع آخر أشد خطراً منهما؛ ويتم ذلك عن طريق انصهار الفيروسين في خلية واحدة، ثم يقوم كل فيروس بإطلاق مادته الوراثية، الأمر الذي يؤدي في النهاية إلى إمكانية تبادل الجينات من خلال كسر الأغشية النووية لكل منهما وتكوين فيروس جديد، يصعب على النظام المناعي لجسم الإنسان التعرف عليه.

ولكن متى يمكن أن يحدث ذلك؟ الله أعلم. ومن هنا تحذّر منظمة الصحة العالمية من أن ظهور فيروس جديد ناتج من تمازج بين الفيروسين البشري والحيواني، سيكون سبباً في وقوع ملايين الضحايا من البشر، بشكل خاص، وتلك هي الكارثة بعينها.

وقد تمكّن العلماء من إماطة اللثام، عن الكيفية التي استطاع بها فيروس الأنفلونزا أن يقتل خمسين مليوناً من البشر، في أنحاء مختلفة من العالم سنة ١٩١٨م. ويعتقد العلماء أن هذا الفيروس استطاع تجاوز ما يعرف بالحاجز النوعي، لينتقل من الطيور إلى الإنسان.

وتعد المرحلة الأولي والمحورية للعدوى، هي تمكن فيروس الأنفلونزا من التعلق بالخلايا التي سينمو فيها مستقبلاً؛ ويتمكن الفيروس من ذلك بالاستعانة بجزيئات متناهية الدقة تشبه الإبر، يطلق عليها علمياً جزيئات الهيماجلوتينين. والتي تتعلق بمستقبلات معينة على سطح الخلايا في جسم الكائن الحي، وقد أجرى العلماء فحصاً دقيقاً لهيماجلوتينين فيروس الأنفلونزا القاتل، الذي اجتاح العالم عام ١٩١٨م، واكتشفوا أن تغيرات طفيفة فحسب على هيكل الفيروس لزمت ليبدأ التعلق بالخلايا البشرية، بدلاً من خلايا الطيور؛ وهذا ما جعل الفيروس قادراً على الانتقال من الطيور للإنسان. وبعد ذلك انتقلت العدوى من الإنسان للإنسان، مما أسقط أعداداً هائلة من الضحايا، ومن شأن هذا العمل أن يساعد على تحسين رصد الفيروس الحالي (إتش٥ إن ١). فإذا وجدنا أن هيكل هذا الفيروس يشبه هيكل فيروس عام ١٩١٨م، الذي أمكننا رصده؛ فسنعرف أن بإمكان هذا

الفيروس الجديد أن يشكل تهديداً للبشر، وسيتعين أن يوضع تحت رصد ومتابعة نشطة تفوق المعتاد.

وهناك دراسة تكشف تحور فيروس أنفلونزا الطيور لسلالة خطرة، إذ اكتشفت حدوث تحور في جين B.B.-2)) في عينة من الفيروس (إتش ٥ إن ١)، تم أخذها من مريض في دونج ثاب، جنوب فيتنام، كان قد مات في أوائل العام الحالي، ويسمح هذا التحور بالتكاثر النشط للفيروس في الثدييات.

عوامل انتقال المرض

ومن العوامل الرئيسة التي تنقل المرض من المناطق الموبوءة إلى المناطق السليمة، الآتي:

١. الطيور المهاجرة.

٢. العاملون بتربية وبيع الدواجن وطيور الزينة.

٣. عن طريق المعدات والأقفاص، التي ينتقل المرض بوساطتها من مزرعة إلى أخرى.

٤. من خلال وسيط كبعض الحيوانات، مثل: القوارض والقطط والكلاب والخنازير.

٥. استنشاق الغبار الملوث بالفيروس.

٦. تناول الطعام الملوث.

ويستطيع فيروس أنفلونزا الطيور البقاء على لحم الدجاج المذبوح، ويمكن أن ينتشر عبر المنتجات الغذائية الملوثة (اللحم المجمد)، وتزيد درجات الحرارة المنخفضة استقرار الفيروس.

ويستطيع الفيروس أن يبقى في غائط الطيور لمدة ٣٥ يوماً على الأقل، في درجات الحرارة المنخفضة (٤درجة مئوية)، وفي اختبارات الاستقرار التي أجريت على العينات البرازية، استطاع فيروس (إتش ٥ إن ١) الصمود في درجة حرارة ٣٧ درجة مئوية لمدة ٦ أيام.

وفيروسات أنفلونزا الطيور بإمكانها أن تصمد أيضاً على السطوح، مثل بيت الدواجن لعدة أسابيع، وبسبب هذه القابلية للبقاء، فإن طرق حفظ الغذاء العادية مثل التجميد والتبريد لن تخفض تركيز أو نشاط الفيروس بصورة جوهرية في اللحوم الملوثة، ولكن الطبخ الطبيعي (درجات حرارة في حدود أو فوق ٧٠ درجة مئوية) تعطل الفيروس.

وحتى الآن ليس هناك دليل على إصابة البشر خلال استهلاك لحم الدجاج الملوث، والمطبوخ بشكل جيد. ويمكن أن يستنتج بأن لحم الدجاج المطبوخ جيداً آمن، لكن المشكلة تكمن في أن التعامل مع لحم الدجاج المجمد أو المذاب قبل طبخه يمكن أن يكون خطراً. وبالإضافة إلى ماسبق، فإن أسلوب تسويق الطيور الحية يؤدي إلى تعرض شامل وبشكل أكبر إلى الأجزاء الملوثة من الطيور، ابتداء بالذبح، ونزع الريش، ونزع الأحشاء، إلخ، ما يشكل خطراً ضخماً على الشخص المشترك في هذه النشاطات؛ حيث إن كل أجزاء الطير المصاب ملوثة بالفيروس تقريباً.

وفيروس أنفلونزا الطيور يمكنه التواجد داخل البيض وعلى قشوره، على الرغم من أن الطيور المريضة ستتوقف عن الوضع عادةً، والبيض المنتج في مرحلة المرض المبكرة هذه، يمكن أن يحتوي على الفيروسات في الزلال والمح، إضافة إلى تواجده على سطح القشرة الخارجية.

حصد مرض انفلونزا الطيور عام ١٩١٨ خمسين مليون شخص

وإن وقت صمود الفيروس على سطح قشرة البيض كاف لنشر المرض بصورة وبائية. والطبخ الجيد فقط سيكون قادراً على تعطيل الفيروس داخل البيض، وليس هناك دليل طبي حتى الآن على أن البشر أصيبوا بالمرض باستهلاك منتجات البيض أو البيض نفسه.

أعراض المرض عند الطيور

ومن أعراض أنفلونزا الطيور في الدواجن احتقان، وبقع دموية بالمفاصل، وانعدام النشاط والشهية، وتورّم الرأس والأجفان والعرف والدلايات، وزرقة في العرف، وإفرازات من الأنف والفم، والسعال والعطس والإسهال، والموت المفاجئ. وتصل في أيام محدودة إلى ١٠٠٪.

وللتأكد من المرض في الطيور، يتم إجراء التشريح لمعرفة التغيرات الجهازية، والتي تظهر في أنفلونزا الطيور، مثل التهاب في الأكياس الهوائية. والطيور التي تكون في فترة إنتاج البيض، توجد بها آفات في قناة المبيض، وفي الحالات الحادة للمرض تنتشر آفات في الجسم، وتوجد الإفرازات الليفية في التامور، والبريتون، والأكياس الهوائية، وقناة المبيض، وقد تتصلب الرئة بالالتهاب، كما يوجد النخر البؤري في الكبد والكلي والطحال، ويوجد أيضاً الدوالي في الكبد والطحال والكلي، كما يكون النزف منتشراً في الجسم و تحت المجهر يمكن أيضاً ملاحظة تكهفات في المخ، ونخر في الأعضاء الداخلية. وللتأكد من التشخيص معملياً يمكن إجراء اختبار تلازن الدم، واختبار الانتشار على الغراء الجيلاتيني، واختبار نيور أميدنيز للكشف عن الأنتيجينات السطحية.

أعراض المرض عند الإنسان المصاب

وبالنسبة لأعراض أنفلونزا الطيور في الإنسان فإنها تتمثل في:

١. ارتفاع في درجة الحرارة تصل إلى ٣٨ درجة مئوية أو أكثر.

٢. السعال.

٣. تقرح الحنجرة.

٤. صعوبة التنفس.

٥. التهاب العيون.

٦. حدوث نزيف من الأنف واللثة.

٧. إحساس بالإعياء والتقيؤ والإسهال.

٨. آلام في البطن.

وفي الحالات الشديدة تحدث مشكلات في التنفس، تتضمن التهابات رئوية شديدة. وتتطور الإصابة إلى قصور في التنفس، يستدعي الاستعانة بأجهزة التنفس الصناعي. وتتطور الأعراض إلى قصور كلوي، وقصور قلبي، والتهاب كبدي، ونزف رئوي، ثم الوفاة.

وسائل الوقاية من المرض

وللوقاية من مرض أنفلونزا الطيور، يجب - أولاً - اتباع الإجراءات الوقائية:

١. غسل اليدين بشكل متكرر بالماء الصابون.

٢. الابتعاد عن الأشخاص الذين يسعلون وحرارتهم مرتفعة، وسافروا حديثاً إلى الدول الموبوءة.

٣. استخدام الأقنعة المتوافرة لحماية الجهاز التنفسي، ونظارات للوقاية، وقفازات للقائمين على العلاج أو غيرهم من المهنيين المعرضين لانتقال العدوى.

٤. تجنب مخالطة الطيور البرية، وخاصة البرمائية؛ لأنها مصدر رئيس لانتقال العدوى.

وفي حالة ظهور المرض يجب التخلص الفوري بطريقة علمية ووقائية من الدواجن المصابة، وغير المصابة، مهما كان عددها؛ وحجرها، وتعويض المتضررين؛ حسب اتفاقية منظمة الصحة العالمية، ومنع دخول العاملين، والمعدات، في دائرة لا يقل قطرها عن ١٥كم من المنطقة المصابة، وكذلك يجب التوعية الصحية للمواطنين القاطنين قريباً من أماكن توافد الطيور المهاجرة، والتنسيق والتعاون الدولي والإقليمي والمحلي بين الجهات المختصة لمنع وصول هذا الوباء الخطير.

وسائل تجنب انتقال الفيروس

ويجب اتباع الإرشادات الصحية التالية لتجنب انتشار الفيروس خلال الغذاء:

١. فصل اللحم النئ عن الأطعمة المطبوخة أو الجاهزة للأكل؛ لتفادي التلوث.

٢. عدم استعمال لوح التقطيع نفسه، أو السكين ذاته.

٣. عدم لمس الأطعمة النيئة ثم المطبوخة بدون غسل اليدين جيداً.

٤. تجنب إعادة وضع اللحم المطبوخ على نفس الصحن الذي وضع عليه قبل الطبخ.

٥. تجنب استعمال بيض نيئ أو مسلوق بدرجة خفيفة في تحضير طعام لن يعالج بحرارة عالية فيما بعد (الطبخ).

٦. الاستمرار بغسل وتنظيف اليدين بعد التعامل مع الدجاج المجمد، أو الذائب، أو البيض النيئ، مع غسل كلتا اليدين وجميع الأسطح والأدوات التي كانت على اتصال باللحم النيئ بالصابون.

٧. الطبخ الجيد للحم الدجاج سيعطل الفيروسات، ويقتلها، وذلك بضمان وصول لحم الدجاج إلى ٧٠ درجة مئوية أو أكثر أ.

ولا توجد دولة في العالم في كامل الاستعداد لمنع حدوث جائحة الأنفلونزا، ولكن هناك توصيات لمنظمة الصحة العالمية والتي يمكن تلخيصها في التالي:

١. تحسين النهج المتبع في الكشف عن الفيروس في البيئة، وخاصة الكشف الدوري على مزارع الدواجن وأماكن الطيور المهاجرة والمراقبة البيطرية، وضرورة تكوين فهم كاف للعلاقة بين المرض الذي يصيب الحيوان والمرض الذي يصيب الإنسان.

٢. تنشيط وتنمية التعاون بين قطاع الصحة العامة وقطاع صحة الحيوان.

٣. تحسين حالات كشف الإصابة بالبشر، وذلك يستلزم مختبرات مجهزة تجهيزاً خاصاً ويتسم عملها بمستوي عال من الأمن البيولوجي.

٤. التعاون مع الشركات العالمية لاستيراد اللقاح في حال توافره.

٥. تكوين مخزون احتياطي من الأدوية المضادة للفيروسات.

ولعلاج أنفلونزا الطيور يجب تحصين الدواجن السليمة بلقاح فيروس المرض (إتش٥إن١)، وذلك لتكوين أجسام مناعية للوقاية من وقوع المرض. وبالنسبة للإنسان يجب إعطاء لقاح فيروس المرض (D-R-3) للإنسان السليم، وذلك لتنشيط جهاز المناعة، وخيار اللقاح يثير عدة مشكلات منها: أن اللقاح المتوافر حالياً ضد هذا الفيروس يعمل فقط ضد نسخة الفيروس القائمة، ولكن قد يكون هذا اللقاح غير فعال في التعامل مع نسخة أخرى متحورة وقادرة على الانتقال بين البشر.

وفي حالة الإنسان المصاب يتم علاجه باستخدام دواء مضادات الفيروسات؛ ويوجد منها نوعان:

النوع الأول عبارة عن كبسولات تسمي (تاميفلو) وهو أكثر فاعلية وتأثيراً على الفيروس، وخاصة إذا استعملت في اليومين الأوليين لظهور الأعراض (خلال ٤٨ ساعة وكلما كان ذلك أسرع كلما كانت النتائج أفضل)، كما يساعد أيضاً في الوقاية من الفيروس في حال استخدامها قبل الإصابة؛ وبذلك فإن هذا الدواء هو الصالح في حالة انتشار الوباء العام.

والنوع الثاني عبارة عن نقط في الأنف تسمي(ريلينزا). وهو أقل تأثيراً على الفيروس من النوع الأول. وحالياً تتسابق مراكز الأبحاث والجامعات العالمية على إنتاج أمصال (أجسام مناعية جاهزة) لاستخدامها في حالة حدوث وباءٍ- لا قدر الله-.

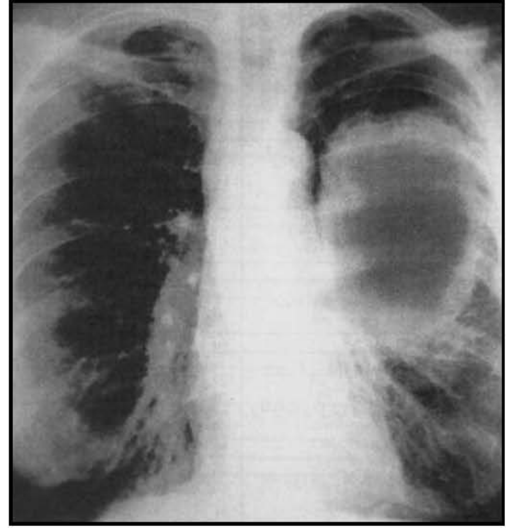
أمراض ناجّة عن ملوثات المنزل

■ د. بشير جرار•

تشير الدراسات البيئية والصحية إلى إحتواء أجواء منازلنا على عشرات الملوثات المسؤولة عن العديد من أمراض الجهاز التنفسي والقلب والحساسية والأورام السرطانية المتنوعة. فعلى سبيل المثال دلت الدراسات حول مستويات المنازل في كل من الهند والصين على أنه مقابل كل حالة وفاة بسبب ملوثات البيئة الخارجية هنالك حالتي وفاة بسبب ملوثات المنازل. وتذكر تقارير منظمة الصحة العالمية بأن حوالي ٢,٨ مليون شخص من البالغين يموتون سنوياً بسبب ملوثات المنازل التي تضع جميع قاطنيها خاصة الأطفال والنساء الذين يقضون معظم وقتهم داخل منازلهم تحت طائلة مخاطر هذه الملوثات. وكما أدخلت التقنيات الحديثة العديد من الملوثات عبر أجهزة الميكروويف والهاتف النقال والأجهزة الأخرى إلى منازلنا مستويات مرتفعة من الضوضاء والإشعاع. وبالمقابل ما زال نصف سكان العالم يستخدم الفحم أو الخشب أو روث الحيوانات كوسيلة للطهي والتدفئة على مدافي ومطابخ غير فعالة وفي منازل سيئة التهوية. ولا غرابة فيما أعلنته منظمة الصحة العالمية بأن ١,٩ مليون شخص يموتون سنوياً بسبب جسيمات الغبار العالقة في أجواء المنازل مقابل نصف مليون يموتون بسبب هذه الجسيمات في البيئات الخارجية. ومن المؤسف أن تدني مستويات الخدمات الصحية والوعي البيئي يجعل مهمة التصدي لملوثات المنازل ومخاطرها أمراً ليس باليسير. وفيما يلي استعراض لأهم الأمراض التي تسببها ملوثات المنازل:

متلازمة المسكن الممرض: متلازمة المسكن الممرض عبارة عن ظهور أعراض مرضية على الشخص عند دخوله لمنزل ثم تختفي هذه الأعراض عند مغادرة هذا

• قسم علوم المختبرات الطبية - كلية العلوم الطبية التطبيقية - جامعة الجوف



المنزل، حيث تظهر الأعراض بعد دقائق من دخول المنزل لكنها قد تستمر لعدة ساعات أو أيام بعد مغادرته. وتشاهد هذه الظاهرة في المباني التي يكون بها تدوير مركزي يمرر بها هواء التكييف خصوصاً إذا كانت نسبة التبادل مع الهواء الخارجي ضعيفة. ومن أعراض متلازمة المسكن الممرض:الصداع، جفاف الأغشية المخاطية بالفم والأنف والحنجرة، تحرش العيون، دوخة وإغماء، غثيان، عدم الراحة والعصبية ،الأرق المصاحب للنوم، متاعب بالجيوب الأنفية، التهاب الأنف التحسسي، طفح جلدي، احتقان أنفي مزمن.

الربو: أظهرت الدراسات الصحية والبيئية أن هنالك علاقة وثيقة بين الربو ووجود الصراصير والحلم الغباري والفطريات في المنازل. وكما أن بعض أنواع السجاد والدهانات الجديدة وبعض ملوثات الهواء في المنازل من المسببات الأخرى لظهور أعراض الربو. ومن أهم ملوثات المنازل المسببة للربو دخان السجائر والأبخرة المتصاعدة من الطهي والأبخرة الكيميائية لمواد التنظيف والمستحضرات الرذاذية داخل المنازل. ولعل دخان السجائر من أخطر مسببات الربو عند الأطفال، وتتفاقم المشكلة في المنازل سيئة التهوية. كما أن غازات الطبخ قد تصل إلى مستويات مرتفعة تسبب نوبات الربو، يضاف إلى ذلك الأبخرة المتصاعدة من مواد التجميل ومحاليل الدهان وسوائل التنظيف التي تفاقم من المشكلة. وكما هو معلوم فالربو من الأمراض التي لا يتوفر لها حالياً علاج وإنما أدوية مسكنة للسيطرة على أعراضه وللحد من تفاقمه.

وهنالك العديد من ملوثات المنازل التي تفاقم حالة المصابين بالربو وأهمها :

دخان السجائر، جسيمات الغبار المنزلي، حلم الغبار، رذاذ الشعر، أجزاء حيوانات المنزل المتساقطة مثل الشعر والريش والقشور،الصراصير وأجزائها وفضلاتها، حبوب لقاح بعض النباتات المنزلية والأبخرة المصاحبة لعمليات الطهي.

حيوانات المنزل من مسببات العديد من الأمراض

حمى الهواء الرطب: حمى الهواء الرطب مرض غير معروف الأسباب تماماً إلا أنه يعتقد أنه ينتج عن استخدام أجهزة ترطيب الهواء في المنازل كوسيلة للتخفيف من بعض المتاعب الناتجة عن جفاف الأنف والحنجرة والشفاه والجلد. تعمل هذه الأجهزة خاصة المتسخة منها على نشر بعض الملوثات الكيميائية والحيوية في أجواء المنزل. تظهر على المصابين بهذا المرض أعراض الالتهاب الرئوي التحسسي مصحوب بالحمى. ويعتقد أن هذه الأجهزة تنشر مع الهواء الرطب بعض مسببات العدوى، خاصة الفطريات وحلم الغبار. وتظهر أعراض المرض بشكل مبكر على فئات معينة من قاطني المنازل، خاصة المدخنين ومدمني الخمور بسبب خفض المناعة لديهم، إضافة إلى كبار السن فوق عمر ٥٠ سنة. ومن أعراض هذا المرض الآتي: صداع، حمى قشعريرة، ضعف العضلات، ضعف عام.

مـرض الليوجنيير (حمى البونتياك): عرف مرض الليوجنييرلأول مرة عام ١٩٦٨م عندما أصاب نزلاء أحد الفنادق في مدينة بونتياك بولاية متشغن الأمريكية مـرض غامض وأطلق عليه حين ذلك حمى بونتياك. وقد اتضح أن سبب إصابة نزلاء الفندق هو تلوث هواء غرف هذا الفندق ببكتيريا معينة كان مصدرها أجهزة التكييف المركزي، ومن ذلك الحين يطلق هذا المرض على الأشخاص الذين يصابون بأعراض التهاب رئـوي مصحوبة بحمى كنتيجة لاستنشاق هـواء رطب ملوث بالبكتيريا. وترتبط الإصابة بهذا المرض بالمنازل الفخمة والقصور التي تشتمل على أنظمة التكييف المركزية، وحمامات الدردور (دوامات الماء).

والسعال أول أعراض هذا المرض ويكون حاداً وربما مصحوباً بالبلغم تليه حمى مرتفعة ودوخة وقيء وصداع وألم العضلات والصدر وضيق في التنفس. وكما أن الإسهال صفة مميزة لهذا المرض. كذلك يعاني المصابون الذين يعانون من مشاكل في الجهاز المناعي والمصابين بأمراض الرئة من مزيد من التعقيدات لهذا المرض قد تؤدي إلى الوفاة. ويستغرق في العادة الأمـر وقتاً طويلاً حتى يعود المريض إلى وضعه السابق. وعلى المصاب المدخن الانقطاع عن التدخين تماماً خلال فترة النقاهة لمدة قد تصل حتى عام. وأبرز الأعراض خلال هذه الفترة هو ضعف المقدرة على التركيز عند المصاب.

سـرطـان الـرئـــة: العـديد مـن ملـوثـات المنازل مسرطنة، خاصة للجهاز التنفسي ومسببة لسرطان الرئة. وأظهرت الدراسات أن الغازات المنبعثة من الطهي ودخان السجائر والمنظفات داخل المنازل تؤدي إلى العديد من الأمراض وفي مقدمتها سرطان الرئة. وعلى سبيل المثال في الصين الشعبية فإن نسبة سرطان الرئة بين النساء اللاتي يستخدمن الفحم كوسيلة للطهي في منازلهن هي ستة أضعاف نسبة الإصابة بين النساء اللاتي يستخدمن غاز الاسطوانات الذي يطلق مستويات أقل من الملوثات.

ويعد التدخين مسؤول عن انتشار أنواع متعددة مـن السـرطـان، وتـصـل مسؤووليته حتى ٩٠٪ من حـالات سـرطـان الـرئـة و ٣٥٪ مـن حـالات سـرطـان المثانة و ٣٠٪ من كل حالات السرطان.

داء السـل: ينتشـر مـرض السـل بين القاطنين بالمنزل أو العاملين به، وينتقل من المصابين بهذا المرض إلى الآخرين بسبب الظروف البيئية للمنزل، خاصة الازدحـام بالأشخاص وسوء التهوية. يسبب هذا المرض المعدي جرثومة تخرج مع البلغم لتصل إلى إنسان آخرعبر الاتصال مع أدوات المصاب.

ملوثات المنـزل من أهـم مسببات سرطان الرئة

الحـسـاسـيـة: يـصـاب سـكـان الـمـنـازل بأمراض التحسس كنتيجة لتفاعلات مناعية بسبب تلوث أجواء المنزل بالعديد من الملوثات. ويفاقم المشكلة وجود عوامل أخرى تساعد على الإصابة بالحساسية المفرطة لهذه الملوثات، كارتفاع الرطوبة إلى أكثر من ٥٠٪ ووجود تسريب للمياه بشكل دائم بالمنزل، إضافة إلى أجهزة التكييف المركزي التي تعتمد على تدوير الهواء المغلق داخل المباني.

ومـن أشـهـر مسببات التحسس داخـل المنزل: جسيمات الـغـبـار، أبـواغ الـفـطـريات المنبعثة من جدران المنازل التي تتعرض لتسريب دائم للمياه، حبوب اللقاح، حلم الغبار، بعض الجلود والمطاط، المطهرات والمنظفات المنزلية، المستحضرات الرذاذية في المنزل كالرذاذ المضاد للتعرق والمواد الرذاذية المنعشة، السجاد والموكيت المصنع حديثاً، الصراصير والقوارض من جرذان وفئران بالمنزل، وجود حيوانات أليفة من كلاب وقطط وطيور وأرانب تشارك الإنسان منزله.

الأهمية الاقتصادية للبحث العلمي

■ د. محمد بن فهد القحطاني

يُعدُّ البحث العلمي في غاية الأهمية من الناحية الاقتصادية، لاسيما في الدول النامية، التي تعاني من عجز كبير في المعرفة العلمية، وكذلك من نقص حاد في مستوى الإنفاق على البحث العلمي. وتنبع هذه الأهمية من قناعة الدول النامية، في أن السبب المباشر في عدم لحاقها بركب الدول المتطورة، هو تخلفها التقني، وبالتالي تراجع مستويات النمو، في العديد من بلدان العالم الثالث. إن العلاقة بين الإنفاق على البحث العلمي ومستويات النمو الاقتصادي، تُعد علاقة وثيقة العُرَى، ومؤكدة، بالنظر إلى واقع الدول النامية والدول الصناعية؛ فكلما زاد الإنفاق على البحث العلمي كنسبة من الناتج القومي، كلما ارتفعت معدلات النمو الاقتصادي. والمثال الواضح في هذا المجال هو روسيا، حيث أدت الأزمة الاقتصادية الخانقة، إلى تقليص نسبة الإنفاق على الأبحاث والتطوير من ٢٪ في العام ١٩٩٠، إلى أقل من ١٪ في العام ١٩٩٩ وقد نجم عن ذلك انهيار اقتصادي كامل، ما ترتبت عليه مشكلات أخرى؛ كالأزمات المالية، وتخلف تقنية الإنتاج، وتراجع في عدد البحوث العلمية المنشورة، وتناقص أعداد براءات الاختراع والبطالة في صفوف العلماء والباحثين، والذي دفع بهم إلى الهجرة إلى بلدان أخرى.

يزدهر البحث العلمي في البلدان المتطورة، التي تتمتع اقتصادياتها بطابع تنافسي، إذ يُنظر إلى البحث العلمي على أنه الوسيلة الأكثر فعالية في تحقيق

● أستاذ الاقتصاد المساعد - معهد الدراسات الدبلوماسية mqahtani@ids.gov.sa

التنمية المستدامة على مستوى الاقتصاد الوطني. ولتحقيق ذلك الهدف تقوم الحكومة بوضع السياسات العامة، الكفيلة ببث الوعي العلمي على المستوى الشعبي، من خلال إنشاء مراكز البحوث، وتقديم الدعم المادي للمشاريع العلمية والبحثية، وتصميم المناهج التعليمية الكفيلة بخلق "العقول المتدبرة".

على مستوى القطاع الخاص، تتنافس الشركات الصناعية المنتجة، في مجال تطوير تقنية الإنتاج، ما يتطلب إنشاء أقسام الأبحاث والتطوير (Research and Development، R&D)، إذ يقوم الباحثون بتحديث وسائل الإنتاج، وتحسين جودة السلع، لأجل إقناع المستهلكين بارتفاع مستوى الجودة، مقارنةً بالسلع المنافسة الأخرى. فإذا أفلحت الشركة في الحصول على أحدث تقنيات الإنتاج؛ فإن ذلك يضمن لها ميزة تنافسية، مقارنة بالمنتجين الآخرين، ويحافظ على حصتها في السوق ما يترتب عليه بقائها واستمرارها. أما على مستوى العلماء والباحثين، فإنهم يحصلون على الكثير من الدعم المادي والمعنوي، لأجل تشجيعهم على الانخراط في إعداد البحوث والتقارير العلمية المهمة. إن تقديم الجوائز التشجيعية، يؤدي إلى خلق جو مفعم بالروح التنافسية، التي تنعكس إيجاباً على البحث العلمي من خلال إقناع الباحثين بأن قيامهم بالبحث العلمي، هو عبارة عن استثمار في مستقبلهم الوظيفي في المقام الأول.

يأتي الوضع في الدول النامية على طرف النقيض منه في الدول المتقدمة، حيث التخلف العلمي، والندرة في تقنية الإنتاج، وتدني فائدة المناهج الدراسية؛ ومردُّ ذلك نتيجة طبيعية لسياسات خاطئة، من قبل صنّاع القرار، أو عدم جدية الأجهزة الحكومية، بضرورة البحث العلمي، إذ يُنظر إلى الإنفاق على المشاريع البحثية والتعليمية، بما فيها التعليم الجامعي، كنوع من الرفاهية، التي تؤدي إلى هدر الموارد المادية النادرة في الدول النامية.

إن المناهج التعليمية، سواء في المراحل المبكرة أو في المراحل العليا، قد وُضعت بشكل سريع وغير مدروس، لحل مشاكل وقتية، ألا وهي مشكلة الأمية، المنتشرة في أكثر الدول النامية (بما فيها الدول العربية). فتلك المناهج تركّز على المهارات الأساسية: كالكتابة، والقراءة؛ وتعتمد على أسلوب التلقين، بينما تغفل التفكير العلمي الإبداعي، وتهمل التدريب على التحليل الخلاّق!

يشتكي العلماء والباحثون في الدول النامية من قلة الدعم المادي والمعنوي لاكتشافاتهم العلمية؛ بل ومن قلة الإنفاق على المعدات، والمراجع الضرورية، التي تُعد شرطاً ضرورياً للقيام بأي بحث علمي؛ فعلى سبيل المثال، تفتقر المكتبات الجامعية للدوريات العلمية المتخصصة ذات الكلفة الباهظة التي تتجاوز قيمة اشتراكاتها الميزانية المحددة للمكتبة، في حين يُوجّه جلّ الإنفاق إلى نشاطات بعيدة كل البعد عن النشاطات الأكاديمية! وحتى الإدارات الحكومية المستقلة التي تُعنى بتقديم الدعم المادي للباحثين، تضع العديد من الشروط والعراقيل، التي تُحبط المشاريع البحثية، التي قد تكون في غاية الأهمية في نشر الوعي العلمي؛ بل وتعاني ميزانياتها من تحكّم الأفراد ذوي الميول البيروقراطية، الذين قد لا يؤمنون بجدوى تبنّي تلك الإبداعات. وكنتيجة لذلك التوجه، يُنفق أغلب الموارد المالية المرصودة على أمور لا تمت بأي صلة لنشاطات البحث العلمي.

إن غياب نظام الحوافز للباحثين المتميزين، أدى إلى فقدان العلماء الرغبة في الإقبال على البحث العلمي لاسيما وأن قوانين الوظائف العمومية تقف حاجز في سبيل إعطاء النشيطين في الحقول العلمية

معاملة خاصة، وهذه الخاصية الأخيرة دفعت الأفراد لشغل الوظائف البحثية، بهدف الحصول على دخل الوظيفة فقط، دون القيام بالنشاطات العلمية، التي تتطلب جهداً فكرياً مضنياً.

تنبع أهمية البحث العلمي بوصفه المصدر الأساس للمعرفة التقنية، المرتبطة بشكل مباشر بعملية الإنتاج. هذه المعرفة التقنية تُعدُّ المحرك الأساس لعملية النمو الاقتصادي، كما هو معروف في أدبيات علم الاقتصاد. ومن الملاحظ كذلك، وجود رقم ضخم جداً من الباحثين والمتخصصين في العلوم البحتة في البلدان المتقدمة بينما على العكس من ذلك هو الوضع في الدول النامية، التي تعاني من نقص حاد في عدد القادرين على القيام بالبحوث العلمية الضرورية في التنمية الصناعية. في الولايات المتحدة الأمريكية، تقوم الإدارة الحكومية بجهود جادة لتشجيع البحث العلمي، مثل إنشاء جهة علمية حكومية مستقلة، تتولى تقديم الدعم المادي للباحثين، فقد أنشأت المنظمة الأمريكية المعنية بالبحث العلمي (National Science Foundation، NSF) في العام ١٩٥٠، بعد تقرير أُعد للبيت الأبيض، إذ وضّح ذلك التقرير أهمية العلوم في الوصول إلى أهداف، لا يمكن أن تتحقق إلا من خلال الاعتناء بالبحث العلمي. تقدر المنظمة الأمريكية المعنية بالبحث العلمي عدد العاملين النشيطين في مجال البحث العلمي بحولي ٨٠٠،٠٠٠ شخص في العام ١٩٩٥، وفي العام نفسه، تبيّن تقارير الإحصاءات العمالية، أن عدد العاملين في مجال العلوم الطبيعية والهندسية ما يقارب ١،٧٢٢،٠٠٠ موظف. ومن الإحصاءات المهمة كذلك، يتبين وجود عدد كبير من حملة الدكتوراه، في المجالات العلمية والهندسية البحتة، المنخرطين في البحث العلمي في الدول المتقدمة، على وجه العموم، وفي الولايات المتحدة الأمريكية، بشكل خاص، حيث بلغ هذا الرقم ٨٥،٠٠٠ باحث في العام ١٩٩١.

هناك العديد من الدراسات الاقتصادية، التي تنظر بعين الأهمية للأبحاث والتطوير، كقرار استراتيجي لدى صنّاع القرار، من أجل المحافظة على القدرة التنافسية، ومن ثم المقدرة على النمو والبقاء. هذه الأهمية أيضاً صحيحة، على مستوى المنشأة، حيث تتخذ العديد من القرارات لتعزيز مقدرتها التنافسية، مثل: جودة الإنتاج، والتسعير، والاستثمار في الطاقة الإنتاجية، والاستثمار في مجال البحوث والتطوير.

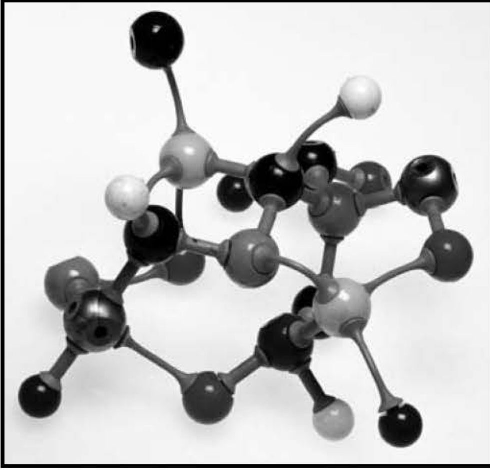
هناك العديد من الدراسات التي وجدت علاقة وثيقة بين مستوى الإنفاق على البحوث والتطوير والاختراعات العلمية، ومستوى التقنية التي تمتلكها المنشأة، كما وجدت أيضاً علاقة وطيدة وإيجابية بين مستوى الإنفاق على البحث العلمي (الذي هو الوجه الآخر للمخترعات العلمية كما هو موضّح من العلاقة السابقة) والأرباح المتوقعة. فعلى سبيل المثال، أثبت الباحثون الاقتصاديون أن مصدر ثلثي الاختراعات العلمية هو الأبحاث والتطوير بينما يُعزى الثلث الباقي إلى عدة عوامل، مثل: نقل التكنولوجيا من المنافسين في السوق، واقتراحات العملاء، وغير ذلك من المصادر الأخرى.

إن المتتبع للتنمية الصناعية في الدول المتقدمة، يجد أن هناك نسقاً لقيام الصناعة في منطقة جغرافية دون أخرى. وهناك قائمة طويلة من العوامل الاقتصادية التي تؤدي إلى قيام المناطق الصناعية، إلا أن أهم تلك الأسباب القرب من مراكز البحوث والتجمعات العلمية؛ ففي الولايات المتحدة الأمريكية على سبيل المثال، هناك تجمعات للصناعة في منطقة وادي السليكون (Silicon

Valley) في ولاية كاليفورنيا وذلك بسبب القرب من جامعة ستانفورد وجامعة كاليفورنيا (بيركيلي)، وهناك تجمع صناعي كبير جداً في منطقة بوسطن (Boston، Massachusetts، Route 128)، الذي يعود إلى وجود جامعة هارفرد (Harvard University) ومعهد ماسشوستس التقني. (Massachusetts Institute of Technology، MIT) إن من أهم الأسباب التي أسهمت في نجاح وانتشار الصناعة في الولايات المتحدة الأمريكية، هو إنشاء الجامعات ومراكز البحوث لمكاتب ارتباط مع رجال الصناعة، حتى يتحقق تفعيل نتائج البحوث التي تم التوصل إليها، والاستفادة منها.

تنخرط الشركات متعددة الجنسيات، ذات الحجم الكبير، في القيام بالأبحاث والتطوير لتقديم مخترعات جديدة، كفيلة بتعزيز مقدرتها التنافسية. المنشآت في الصناعات عالية التقنية، والدواء والالكترونيات، تقوم بعمليات البحوث في معاملها المنتشرة في العديد من الدول؛ فعلى سبيل المثال شركة موتوريلا (Motorola) تقوم بعملية البحوث في ١٤ مختبراً منتشرة في سبع دول. والمثال الآخر، شركة كانون (Canon) تقوم بعمليات الأبحاث والتطوير في ثمانية مراكز متخصصة في هذا النوع من النشاطات منتشرة في خمسة بلدان مختلفة.

هناك سببان أساسيان في قيام الشركات عبر القومية بالبحوث والتطوير لمنتجاتها في عدة دول خلافاً للاتجاه السائد بأن تركز الشركة عمليات الأبحاث والتطوير في معامل قريبة من المركز الرئيسي للشركة، هذان السببان هما: أولاً، أن تستفيد المنشأة من مراكز المعلومات والبحوث المتوافرة في الدول الأخرى، كالجامعات، ومراكز الأبحاث التابعة للشركات المنافسة. ثانياً، تحاول



الشركات العالمية التقرّب من ذوق المستهلك، من خلال دراسات السوق المحلي حتى تحافظ على قدرتها التنافسية، لأجل استمرار التحكم في السوق المحلي وحرمان المنافسين الآخرين من الدخول إلى تلك الأسواق. على سبيل المثال قامت العديد من الشركات العاملة في قطاع الاتصالات

(Siemens، NEC، Matsushita، and Toshiba) بتأسيس فروع لها قريبة من جامعة برينستون (Princeton University) الواقعة في ولاية نيوجيرسي الأمريكية. وفي المضمار نفسه، قامت العديد من الشركات العالمية (على سبيل المثال Texas Instruments and HP) بإنشاء فروع للأبحاث والتطوير التابعة لها في المناطق المحيطة بمدينة طوكيو اليابانية. ومن الأمثلة المشهورة كذلك، قيام شركة توشيبا (Toshiba) اليابانية بالدخول في مشروع مشترك مع شركة سيمنز (Siemens) الألمانية حتى تتمكن من الحصول على التقنية الضرورية في صناعة الحاسبات، حيث قامت الشركتان بتأسيس مركز للأبحاث والتطوير في مدينة ريجنزبيرج الألمانية (Regensburg، Germany).

مع الشاعر الكبير..

طاهر زمخشري

■ فهد الكريع

ثمة رموز في هذا البلد، خاصة، وفي أنحاء العالم العربي، عامة.. أثرو عقولَنا وقدَّمو تجارب في منتهى الإبداع، ولكن لظروف وقتهم، فقد غاب عنهم الإعلام، وظل إبداعهم وإنتاجهم الأدبي محصوراً في تكريم مبسط، ضمن حفل ما، بينما غابت سِيّرُهم عن أعين الأجيال.. ومن هؤلاء المبدعين، الشاعر الكبير الأستاذ طاهر زمخشري، رحمه الله، ونحن نحاول في الأسطر الآتية إلقاء الضوء على جزء من سيرته العطرة..

طاهر زمخشري (١٩٠٦ - ٢٠ يوليو ١٩٨٧)

أديب وشاعر سعودي. ولد بمكة المكرمة عام ١٩٠٦م، وتوفي في ٢٠ يوليو عام ١٩٨٧. ولد الأستاذ طاهر زمخشري أو "بابا طاهر" كما يحب أن يُلقّب في مكة المكرمة، وتلقى تعليمه بمدارس الفلاح. عمل في مختلف أنشطة الدولة والدوائر الحكومية، تدرج بالعمل في الصحافة والطباعة، ابتداء بمصحح ووصل إلى وظيفة مراقب عام. كما أشرف على جريدة "أم القرى".

ثم عمل في شؤون الجمارك في وزارة المالية، سكرتيراً للديوان، وأسهم في تنظيم اللوائح والأنظمة الأساسية. كما شارك في تأسيس الإذاعة السعودية، وكان من أوائل الذين عملوا فيها. وقدَّم مختلف البرامج الإذاعية، والتمثيليات، وبرامج الأطفال، وكل ما يتعلق بالإنتاج الإذاعي، حتى أصبح مراقباً عاماً لها.

انشأ أول مجلة سعودية خاصة بالأطفال، كما شارك في إنشاء وتحرير معظم المجلات والجرائد في بلده. نظم الشعر العمودي والحر، ولم يكتفِ بتشجيعه الأدبي للموهوبين، بل أنفق من جيبه الخاص، على كل موهبة فنية، تنبأ لها بالمستقبل الواعد... وكان يُعد نفسه لكل فنان أو فنانة أو أديب أو مثقف تربطه به أواصر

الصداقة - الترجمان له والمحامي، الذي لا يكلُّ ولا يملُّ. صارع الأيام وصارعته، وصارع المرض حتى صرعه، وعلى الرغم من ذلك، لم يشكُ، ولم يَهُنْ، ولم يغضب ولم ييأس.

أصدر طاهر ديوانه الأول:" أحلام الربيع " عام ١٩٤٦م. وكان أول ديوان يصدر في السعودية، بعد فترة طويلة من غياب المطبوعات عنها وعن منطقة الخليج . عُرف بلقب "بابا طاهر" لاهتمامه بأدب الطفل. انشأ أول مجلة أطفال سعودية - "مجلة الروضة"، و وصدر أول عدد لها بتاريخ ١٧ سبتمبر ١٩٥٩م، ولكنها لم تستمر طويلاً، فقد توقفت بعد ٢٧ عدداً بتاريخ ١٢ مايو ١٩٦٠م. كما رأس تحرير صحيفة البلاد.

عاش الزمخشري حياة المعاناة والبؤس والغربة، وأقام طويلاً في مصر ثم انتقل إلى تونس، حيث كرَّمته الحكومة التونسية، ومنحته وساماً رفيعاً. وكان الزمخشري أحد الذين حملوا مشعل تجديد الرسالة الفكرية في الجزيرة العربية، ونجح في إخراج الشعر السعودي من دائرة المحلية، وأطلقه إلى مصر، ولبنان، وسوريا، والعراق، ثم إلى المغرب العربي، عندما أقام في تونس

الجوائز

- حصل على جائزة الدولة السعودية التقديرية ١٩٨٣.
- كرمته الحكومة التونسية بمنحه وساماً رفيعاً.

قال عن نفسه:

"أنا كومةٌ من الفحم سوداء تلبس ثياباً بيضاء، تقولُ شعراً قصائده حمراء وخضراء وصفراء".

من أعماله:

- أحلام الربيع ١٩٤٦م وهو الديوان الأول.
- أنفاس الربيع.
- أغاريد الصحراء.
- على الضفاف.
- ألحان مغترب.
- لبيك.
- أحلام.
- ورمضان كريم.
- عبير الذكريات.
- من الخيام.
- أصداء الربيع.
- مع الأصيل، وهي مجموعة من التأملات والدراسات النفسية مع بعض الرباعيات الشعرية.
- العين بحر، بحث يتضمن ما قاله بعض الشعراء في العين.
- ليالي ابن الرومي، دراسة لبيئة ابن الرومي وعصره، مع عرض نماذج من أشعاره
- حبيبي على القمر.

مقتطفات من شعره

تقسوا علي بلا ذنب أتيت به
وما تبرمت لكن خانني النغم
أعاده شجن باح الأنين به
فهل يلام محب حاله عدم
حسبي من الحب أني بالوفاء له
أمشي وأحمل جرحاً ليس يلتئم
لأني إن ظلمت فكم
قبلي من الناس في شرع الهوى ظلم
اظلم كما شئت لا أرجوك مرحمة
إنا إلى الله يوم الحشر نحتكم

ومن إبداعاته أيضاً:

ليس في الأرض للذليل ديار
و فلسطين للعروبة دار
وقرار التقسيم أسود داج
و جلاء اليهود عنها نهار
أعلوج تري ادعاء حمانا
صيحة العلج إن توارت خواريا
الثارات مجدنا وهو صرح
لم يصدع ولو طغي الفجار
إن تناسوا في حماها
سوف يحمي حقوقنا البتار



طه صبان... وإستحضار الأماكن

■ مؤيد منيف•

أزقة متراصة، مركاز العمدة، صبية وبنات يلهون، مقهى شعبي، رواشين، ساقي الماء وبعض المقامات الحجازية... الخ قد تطل كل هذه المشاهد العفوية الجميلة أو أي منها - ببساطة وبعبق تراثي أصيل - حين يستحضرها لنا الفنان التشكيلي الجميل/ طه صبان.

يستوقفك تأمل عالمه، المنحاز دائماً لمدنه التاريخيه، المركّبة بفطرة فنية، تعكس صدق انتماء هذا الفنان لإنسانيته ولفنه.

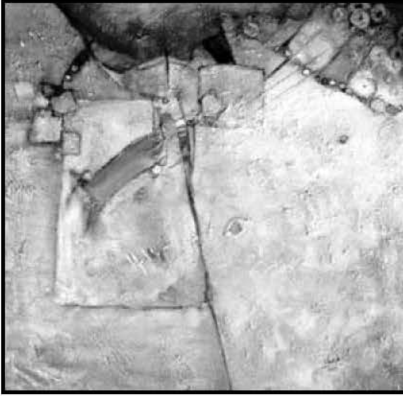
فالفنان، الذي ولد ونشأ بمكة المكرمة، عام ١٩٤٨م، استهل أول مشاركاته عام ١٩٧٠م، وأقام أول معارضه الشخصية عام ١٩٧٥م، بمدينة كولشيستر البريطانية؛ تبعه المعرض الشخصي الثاني عام١٩٧٦م بجلاسكو/ بريطانيا، ثم توالت بعد ذلك المشاركات والمعارض الشخصية، على الصعيدين المحلي والدولي؛ يغري المشاهد دائماً بمواصلة السير معه قدماً داخل مساحاته، الممتدة بشكل أفقي باتجاه اللانهاية، مفضلاً عدم الإلتفات للوراء، تلك المساحات التي ما هي إلا مخططات هندسية، شيدها بتفرد، وأراد من خلالها - الفنان - تصميم مدنه الخاصة، وعالمه المسكون بحياة المدينة البسيطة.

في العام ١٩٩٢م، كان أحد الأعضاء المؤسسين لبيت الفنانين التشكيليين بجده، حيث جرى ترشيحه رئيساً للبيت، الذي كان متنفساً لكثير من الفنانين التشكيليين، لِبَثِّ إبداعاتهم الفنية، منذ ذلك العام وحتى اليوم.

أخلص صبان في حُبه للمدرسة التعبيرية، إذ شكّلت عبر فترة طويلة - وما زالت

• فنان تشكيلي

تشكيل







– وسيلته المفضلة للتخاطب مع جمهوره. فعند الوقوف عند تجربته البصرية، يلاحظ ذلك التناغم الواضح بين شخوص الفنان ومساحاته اللونية، من جهة وبين فكرته التعبيرية، من جهة أخرى، بخبرة تشكلت عبرعمر فني ليس بالقصير في مجال تلك المدرسة ؛ ولا يخفى تأثر صبان ببعض الفنانين التشكيليين الرواد، المحليين والعرب والعالميين، منهم صديقه الفنان التشكيلي الكبير/ عبدالحليم رضوي، رحمه الله، أحد رواد الحركة التشكيلية بالمملكة العربية السعودية، الذي كان له دور واضح – كما يقول الفنان نفسه – في تمسكه بمدرستة التعبيرية .

"جدة والبحر" عنوان لقصيدة عشق، أهداها صبان لمعشوقته الجميلة نثرها على (جدارية)، امتدت ١٦متراً وارتفاع ثلاثة أمتار، شكّلت نصاً جميلاً، يُضاف إلى نصوص جدارياته الأخرى، التي تقرأ كل يوم، وقد ضمتها قاعات مطار الملك عبدالعزيزالدولي بجده، ومطار الملك خالد الدولي بالرياض، ومطار الملك فهد الدولي بالظهران.

التناسب اللوني بشكل طولي، يقابله عنصر التكوين، إضافة إلى لغة التعبير المميزة، شكّلت هذه العناصر الثلاثة، هوية النصوص التشكيلية لطه صبان، فقد قيل عنها: "إنها تصف إنشطار عناصر المدينة إلى شرائح عمودية، تكشف عن معاناته، كسائر أبناء المدن، من هاجس اغتيال هذه المدن بالمخططات التنظيمية المتراكبة، فوق أحداث وأنفاس المدينة القديمة، وتدل على سعيه إلى استرجاع تخطيط مدينته الروحي العريق، وإحياء ذاكرتها الغابرة".

كان لصبان، العديد من المشاركات في البيناليات والمعارض الخارجية، على المستويين العربي والعالمي، منذ عام ١٩٧٠م وحتى عام ٢٠٠٥م، في إيطاليا، والهند، ولندن، والقاهرة، ومدريد، ولبنان، والكويت، وجمهورية التشيك، والشارقة، وأمريكا، وجنيف، صقلت تجربته وأثرت مشواره الفني.

نالت أعمال صبان العديد من الجوائز الداخلية والدولية، في المسابقات والمناسبات التشكيلية. وجرى اقتناء أعماله من قبل العديد من الجهات الحكومية، والخاصة والمتاحف، والمعجبين بفنه من الأفراد.

قصة قصيرة:

المكنسة السحرية

■ بدرية البشر

عندما تقدمت لطلب الوظيفة المعلن عنها في الصحف، كانت غرفة الانتظار تغص بالنساء المتقدمات مثلها لنفس الوظيفة، في زاوية الغرفة جلست فتاة في السابعة عشرة عمرها، تعالج قلقها بالنظر إلى مرآة مدورة في يدها، تطل منها على زينتها، ثم تمرر إصبع الروج على شفتيها بلون رملي باهت. تغيّرت الموضة، لم تعد الألوان الفاقعة، هي مصدر الإثارة على الشفاه عند النساء، بل صارت ألوان الرمل والوردي الباهت، هي الألوان المفضلة لدى فتيات اليوم. لو رأت أمها هذه الفتاة الصغيرة وهي تتجمل بينهن بجرأة ودون مبالاة لقالت قولتها الشهيرة: "أن الشيطان لا يجد طريقة إلى الرجل إلاّ عن طريق المرأة فهي مكمن الغواية، والرجل هو صيدها السهل "!

صاح طفل صغير في الغرفة، يتعلق بزجاجة حليب باردة بين يدي سيدة، سمعتها تقول بلهجة مصرية مختلطة بمفردات سعودية:

" من اللي جزاها خير تمسك الولد الزغير لحد مخلص من المقابلة "؟

لم يتبرع أحد بالرد على سؤالها، دخلت مع طفلها وهي تبرطم بكلام كله حنق على غياب الخير من النفوس هذه الأيام. عندما جاء دورها طلبت منها السيدة التي عند الباب أن تسدل غطاء وجهها، لأن اللجنة كلها من الرجال، شهقت الفتاة التي كانت تصلح من زينتها كل وقت بصوت ممتلئ بالغنج:

يووه يا ربي فيه رجال!

دق الهاتف تحدث معها الرجل السوداني بصوته الخفيض قائلاً:

مبروك، الوظيفة لك، يا سحر بس جيبي معاك الشهادات ومري عليَّ غداً!

في الشهر الأول، قبضت ألف وخمسمائة ريال فقط، لكن عقلها ذكّرها، بالثمانية آلاف وخمسمائة، التي ستقبضها لاحقاً، كان عقلها بارداً، إلى الحد الذي أصبح يؤلف أشياء من عنده، الدورة التدريبية التي التحقت بها لتدريبها على تعلم قواعد العرض، والبيع لم تفلح في نزع تلك القشرة الغبية التي أحاطت بعقلها، من جراء جلوسها الطويل في البيت، بعد خيبتها بعدم الالتحاق بالجامعة، ازدادت هذه القشرة سماكة، بسبب مسلسلات التلفزيون الطويلة، والمباشرة التي لم تترك لعقلها مساحة للتأمل، والتخمين. دربوها على حفظ جميع مميزات المكنسة العجيبة، التي تشفط التراب، وتغسل السجاد، وتنفض الغبار، وتقتل الحشرات وتمتص الدود الصغير الذي يعشش وسط قطن المخدات، والفرش الليلية، شرحوا لها أن هذا الدود الغريب، هو الذي يمتص طاقة الجسد، ويغرس قرونه في شهية الزوج، ويجعله خاملاً، كئيباً، وهو الذي يعلم النساء البكاء طوال الليل، ويصيبهن بأحزان غامضة، عسيرة على التفسير!

تدربت على قواعد لعبة البيع، وتمرين النفس على الصبر، وفن المحاورة، وإبقاء الزبون متابعاً متشوقاً للمعلومات الجديدة، طوال ساعة من الوقت، مع الاحتفاظ بالسعر سرا، حتى نهاية العرض، فلا تهبط عزيمة المشتري قبل أن تقنعه الشروط السحرية للمكنسة.

ظل الرقم المرتفع للبيع يفسد على الدوام كل محاولات العرض، ربما لأنها هي نفسها تجد أن خمسة آلاف، مبلغاً مرتفعاً لمكنسة، فما أن تفتح فمها بالسعر، حتى يبدأ الزبون برفع قطع المكنسة المفككة على الأرض، لمساعدتها على الرحيل عاجلا دون إبطاء.

أقنعت نفسها بأن الفئة التي تستلم مرتباً بألف وخمسمائة ريال، لن تدفع هذا المبلغ لشراء مكنسة، فهم لا شك أناس مثلها، يكتفون بمكانس الخوص، أو مكانس الكهرباء البسيطة التي لا تشفط إلاّ الغبار، لكن بعد خط العشرة آلاف سيفكرون، مرة بشرائها، فذوو فئة الألف وخمسمائة لا يفكرون بتنظيف فرشهم من الكآبة، لأنهم يعرفون أن الكآبة لا تأتي من الفراش، بل تأتي من النافذة، ومن الجيب الخالي، ومن الأمطار، وأسعار الدواء المرتفعة، والأحلام التي انتهت صلاحيتها فرموها في نفاية الأحلام المستحيلة، ولن تفلح مكنسة ما، في شفط الكآبة من هوائهم الذي يتنفسونه. قالت لنفسها: إن هذه المكنسة ليست مصنوعة للغلابة مثلهم، بل صنعت لتقضي على فراغ ربات البيوت اللواتي يتسلين بالشفط والكنس، هن من سيشتري المكنسة السحرية التي، ستشفط دود الكآبة من فراشهن، وتقضي على كآبتهن دون حاجة لالتهام دواء (البروزاك)، الذي يحولهن لألواح من الثلج، تتجمد فيه مشاعر بؤسهن، وفرحهن، وإحساسهن بالحياة، وجعل أعينهن تلمع مثل كرات زجاجية ملونة، بالضوء المنعكس عليها بينما تظل أعماقهن مظلمة ومنطفئة.

انقضى شهرها الثاني، ضامراً بورقات الخمسمائة الثلاث، مما جعلها تتأكد أن النساء يائسات من تطهير بيوتهن من الحشرات، وأرواحهن

من الكآبة؛ فقد دفعن بمكنستها للخارج، لأنهن غير متحمسات لشراء مكنسة سحرية المفعول، بخمسة آلاف يضعنها بين يدي خادمتهن، لتلهو بها، وتخربها، وتأكدن أن كآبتهن لا مفر منها، لأن قدر النساء أن يلدن كل عامين وأن لعبة الهرمونات في أجسادهن، لها سطوة لا تحلّها مكنسة، ولا عقار، بعضهن رفض حتى أن يفتحن لها الباب، وبعضهن تعللن بأن أزواجهن لا يسمحون للغرباء والغريبات بالدخول، فأدركت أنها أخذت الاتجاه الخاطئ حين أغفلت الرجل من حساباتها، لبيع المكنسة، فهو صاحب القرار، وصاحب النقود، ولذا أدارت عجلتها نحو بوصله الرجل بسرعة مائتين وثمانين درجة، وهذا على ما يبدو ما جعلها، تفقد بوصلة الطريق كله.

في المرة الأولى، استقبلها الرجل وحده دون امرأة شرحت له الفكرة، وعندما تأكد أن الأمر كله لا يتعدى مكنسة قال لها:

قولي لمؤسستكم إن (المهابيل) فقط هم من يشترون مكنسة بخمسة آلاف!

نصحها الرجل السوداني في الشهر الثالث أن تختار زبائنها من ذوي الأسماء المتخمة بالمال، فبدأت تقلب في دليل الهاتف، وجدت أرقاماً تخص أصحاب المؤسسات الكبيرة، وعلى الفور اتصلت بهم، وطلبت الحديث مع المدير، الرجل الأول كان يملك اسماً ذهبياً، وصوتاً ذهبياً أيضاً! لكن ضحكته الذهبية رنّت في أذنها . حين قالت له: أنها تريد أن تقابله لبيع مكنسة، ظن أنها تمزح ثم حولها على السكرتير، حاولت مع رجل ذهبي آخرا فسألها:

هل مكنستكم تطير؟!

قالت له: الله يسامحك وهل هناك مكنسة تطير؟!

قال لها: نعم مكنسة الساحرات ؟وأنت قلت أن مكنستكم سحرية!

كادت تنهي الحوار، عندما أدركت أنه يتسلى بها، لولا أنها تذكرت أن اليوم هو الثامن والعشرين من الشهر وأنها لم تبع ولا مكنسة، فقررت ألا تستعجل، وأن تجرب ملاحظات زودتها بها صديقتها، قد تساعد على رفعها من بلاط الألف وخمسمائة.

حدّثت المدير صاحب الصوت الذهبي وطلبت منه، موعداً في البيت وحصلت على ما أرادت. اعتبرت أن هذا النجاح هو حصيلة خبرتها لثلاثة أشهر، وأن الإنسان لا يولد عارفاً، وأن الصبر هو مفتاح الأبواب المغلقة، لو لونت صوتها بطيف من فرح، وبعض ضحك لطيف.

فتح الخادم الباب لها ودخلت منزلًا صقيلاً، يلمع كل شيء فيه بالرفاهية، فتوجست، خوفاً من أن منزلا كهذا ليس بحاجة لمكنسة، وأن الكآبة لا تزور فرش هذا المنزل، ولا يجد الدود اللعين بقعة له، في أجساد نسائه الرخوة، الصور المعلقة على جدران الحائط مفضوحة بالعري، مما أوحى لها بأن هذا المنزل لا يزوره ناس كثيرون، أدخلها الخادم، غرفة ممتلئة بأثاث غريب، مقاعد بلا مساند، ليست كرسيا ولا فراش، ومخدات صغيرة مرسوم عليها نساء ورجال يلهون ويلعبون، وعشاق غارقون في سكرة الحب، وامرأة تطير في الهواء على أرجوحة من أزهار حمراء، وسط غابة من الحب والعناق الدافئ، استيقظ في عقلها حزن غريب، وتنهد قلبها، وهو يلمس أطراف الجنة، سمعت هرير قط في قلبها يدعك فروته بجلدها، انتشرت حبوب برد

على جسدها، شعرت بقشعريرة من شوق، وفرح، وخوف، دخل الرجل صاحب الصوت الذهبي، كان وجهه ذهبياً أيضاً، وملامحه تفيض بالبريق، حياها كما لو كانت ضيفاً عزيزاً عليه، احضر الخادم عصيراً ملوناً، لا تختلط الألوان فيه، ترددت في شربة خوفا من أن تكون واحدة من ضحايا العصير المخدر كما في الأفلام المصرية، طلبت ماء لتغسل حلقها وخوفها، اختصرت الحديث عن مكنستها كثيراً لأنها أدركت أنها بحضرة رجل ذهبي لا يحتاج مكنسة لتنظيف فراشه، ولا سجاجيده العجمية الغالية، لكنه فاجأها وهو يفتح دفتر شيكاته ويسألها:

ما اسم الآنسة ؟

بلعت ريقها وقالت: الشيك سيكون باسم المؤسسة نحن نأخذ نسبة بسيطة من ثمن البيع!

ترك القلم في قلب دفتر الشيكات الضخم وقال لها: خسارة أن يضيع جهدك بثمن بخس.

لم تسمع ما قاله لاحقاً، لأن قطًا شقياً قفز من قلبها، وأندس في صدر دفتر الشيكات، أخذ يمسح جدرانه الناعمة بفروة، حاولت أن تنادي قلبها الشقي ليعود، أخذت أنفاسها تتصاعد للحاق به، خافت أن ينتبه لها الرجل الذهبي ويرتاب في أمرها، ربتت له بأصابعها على رأس الطاولة، كلما ربتت بإبهامه القريب منه انكمش أكثر، قال الرجل الذهبي:

لماذا لا تعملين لحسابك الخاص؟ أليس حراماً أن تعملي، وهم يقبضون، بالمناسبة، كم تقبضين؟

انشغلت بمتابعة قلبها الهارب، وضع الرجل أصابعه الذهبية على أصابعها التي رقدت على طاولة المكتب بحنان فسحبتها بسرعة، اصطدمت بدفتر الشيكات فسقط الدفتر في قاع الدرج، ركض قلبها وراءه، عادت أصابعها تناديه، فاصطدمت مرة أخرى بيد الرجل الذهبي، ألتقط يدها بسرعة، ضغط عليها بشدة، انصهرت أصابعها في يده واعتصرت قبضته كل القشعريرة، التي تتجول في جسدها، منذ دخلت هذا البيت، وأخذت تسبح بها في نهر من الدفء، أوصل قلبها لجنة سحرية، صمت الجنة أطبق على عقلها ولسانها، سحب ستارة الضوء على جفونها، كانت ورقة التقويم على المكتب تنبئ باليوم الأخير للشهر، وأوراق الخمسمائة الثلاث تنام في أيامه الماضيات، حين أرخى جفنيها ستارتهما، غفا قلبها، ثم نام.

حين ذهبت لتقدم استقالتها، من مؤسسة المكانس السحرية، وجدت السيدة المصرية التي رأتها يوم تقدمت بالوظيفة تحمل ابنها على يدها وتقول: للرجل السوداني:

هي دي يا خوي عيشة، هي الألف وخمسمية، بتعمل إيه النهاردة!

سمعت صوت أظافر قلبها تخمش البلاط، تتزحلق على بلاط المؤسسة، ثم يهرب، خرج قبلها إلى السيارة، وأقفل بابها وجلس ينتظرها هناك، حين وصلت إليه، فتح سائقها الزنجي، باب سيارة الفورد، ورنّ جهاز الموبايل في حقيبتها، حين أجابت سمعت صوتا ذهبيا يقول:

يا هووه هي المكنسة السحرية تطير ولا ما تطير!

قصة قصيرة:

شمس مبكرة

■ عبدالرحمن الدرعان

في تلك الظهيرة الطاعنة في السواد، كان علينا أن نقف بالباب بضع دقائق (مرت كأنها بضع سنوات) بانتظار أن يُفرجوا عن أشواقنا، ويسمحوا لنا بالدخول.. وكان خيال قاماتنا، الذي تعكسه مرايا الباب، كافياً لمضاعفة الشعور بالأسى والقنوط.

لاحت لي على الزجاج صورة امرأة، جاءت من الخلف لاهثة تخترق الصفوف، وثمة أصوات مدببة تتطاير مع أنفاسها، كأن دزينة من عصافير محبوسة داخل قفص صدرها.. راحت تحاول دفع الباب، بكف منخولة بالنمش، ومن تحت عباءتها فاحت رائحة حساء بقصد تهريبه إلى أحد المرضى.

تكدسنا كالتلاميذ.. وشرعت الأصوات تستغيث بالرجل المكلّف بفتح الباب، وهو يتنزه فوق البلاط البارد، وبعد أن دبت الفوضى بالمكان، التفت إلينا وحدّق في ساعته، مبتسماً بسادية، لا تليق بمهنته؛ لكي نطمئن على أننا تحت وصايته.

سألني الواقف إلى جواري عن الساعة، ولم ينتظرني لأجيب، لكنه بادر على الفور قائلا: لقد حان وقت المباراة؟! وبدأ على رغم الزحام والاختناق- يدخن تعبيراً عن شعوره بالاضطهاد.

وكانت الصور تتداعى على سقف مخيلتي تباعاً: رأيته وهو يسوي طاقيتي المشغولة بالقصب عائداً من الحج، ورأيته يزرر قميصي بعدما أجلسني أمام عدسة المصور، استعداداً لدخول المدرسة.. ورمقته بأسى يوم أن تركني ارتجف في حجرة المدير، بعدما وضع ملفي الأخضر في الدولاب.

وعانقني خارجاً في المغيب، يتقطر من ذراعيه ماء الوضوء.. وإذ يُسدِّدُ نحوي

قصص

نظرةً، أعرف معناها، أهبُّ لأُحضر له عباءة الوبر، بعد أن آخذ نزهة في شعرها الدافئ لا يقطعها إلا صوتُه، الذي يفاجئني في ليالي الشتاء الباردة، موحشاً ومخيفاً: "انجز قبل ما أخلي أذاني وأذانك أربع". وهالتني شجاعته حين رأيته حاسر الرأس تحت عريشة الخوص جراء ضربة شمس لئيمة، والطبيب الشعبي يحبس عنقه اليابس بأصابعه الزاحفة كعنكبوت سوداء، بعد أن اطمأن على قضيب الحديد، المغروس في المجمرة.

عند اللحظة الحاسمة، أشار إلينا بعينيه أن نبتعد، لكننا تراجعنا قليلاً ثم أوقفنا الفضول لتحلي المشهد.. فوقفنا نتملقه بصمت أن يتركنا.. حتى رأينا خيط الدخان الذي ينفجر من قمة رأسه، لينهض كحصان بري، لا يقبل بأقل من المجازفة.

وفي صباح العيد، نهرع خلفه حالما يفتح باب غرفته، المبللة برائحة عود الند، يحشو جيوبنا الصغيرة بالحلوى والنقود، ثم ينسلُّ إلى الفناء بسرواله الطويل، مخبئاً يده القابضة على السكين وراء ظهره، ينتظر أن يرفع الخروف رأسه من طاسة الماء، فيتلُّه من قرنيه.. ويجهز عليه في لحظات خاطفة ويتركه بقعه من الصوف، ترتعش على بقعة من الدم.

ورأيت صورته العالقة كالوشم، يمتطي فرع النخلة العالية في مواسم الجذاذ ويهيجن فاتحاً رئتيه عن أقصاهما بذلك اللحن القروي الموغل في الوجد:

(يا عين لك بالهوى لفتة ما انتي على دين الاخوان)

وبعد أن يجرد نخلته جرداً، ينزل من أعلاها زاحفاً على يديه، كدواب الحقول.. ثم ينحني على أخي الذي بدأ يدّب بخطوات ثقيلة ويناوله أصابعه، التي علق الدبس على مواضعها، وبدوره ينكب الطفل - كالضأن الصغير- ويلعقها بلهوجة. لم أنتظر أن يجيء المصعد.. لم يكن في مقدوري أن أنتظر حتى يجيء، حين أبصرت العجوز تدلف إلى الداخل بعدما انغلق الباب من تلقائه عليها، تعزَّز لديَّ يقينٌ بأنها ما جاءت إلا لتلفظ بقية أنفاسها هنا.

وفكَّرت: هل سينجو أبي من العملية؟ وهل سيعود إلى مبخرته التي أصبحت من بعده أرملة ويتيمة؟! أم أن طائرة الإخلاء أقلته عبثاً.. وأن أخي الذي رافقه هاتفني بالأمس لاشاركه طقوس الوداع؟!

منذ أن فشلت أدوية العطارين ووصفات الطب الشعبي في انقاذه من نوبات المرض، وأصبح ينقاد إلى المستشفيات بسهولة، أدركت أن فجيعة ما سوف تحل بنا عما قليل.. ونشأت بيني وبين أخي من يومها أزمة ثقة، صار كلانا يُلِحُّ على الآخر أن يعيد الإجابة مرة أخرى، قبل أن يتنفس أحدنا الصعداء.

أقول: يا إلهي كم كان كابوساً مرعباً، وأبدأ بسرد المنام، الذي فزعني.

- ولكنه هاتَفَكَ للتو، لقد هاتَفَكَ فعلاً، سيُجرون العمليةَ غداً!! هل أُحضر لك ماء، تقول زوجتي.

أشهق ببلاهة: هاتفني؟!.

فيجيء الصوت هادئاً لتفادي الانكسار: ولكن غرفة العمليات ليست مقبرة؟!.



لقد مكث عدة سنوات، يقاوم السُّكَّر والضغط ونوبات الربو المفاجئة، وفجأة، فضحته المضاعفات الخطيرة، وغيّرت الكثير من عاداته اليومية.

في ذلك المساء، تأبط مخدته، بعد أن افتعل شجاراً مع الجميع أثناء تناول طعام العشاء، ونام

في المجلس. وفي اليوم التالي، بدأ يأنف من وجود الخادمة، وعندما هدد أمي بالطلاق، أصبح السر عارياً إلا أنه لم يكن قابلاً للتداول.

سألتُ الممرضة، بلغة إنجليزية مكسَّرة، عن غرفته، فأجابتني بعد أن نقّبَت في جهاز الكمبيوتر، بلغة عربية هزيلة، لكنها محايدة، وفي الممر، عادت الصور تومض من جديد.

رأيته يتشبث بجذع (منيفة) نخلته الأثيرة، بعدما أوقف طلعها للفقراء نفقة لأمي التي ماتت فجأة، كأنما كانت تفتديه بروحها، وتهديه بقية أيامها، رأيته يتشبث بكرانفها، ويجدف على لجنة البلدية، التي جاءت مع بدايات الطفرة، لتخطط القرية، وتقتلع جزءاً من البستان، وحين رأى العربات الصفراء تمضغ جدار الطين، وتحيله، في لحظة خاطفة، إلى حفنة غبار، بكى، كما لم يفعل من قبل، وأقسم أنها إحدى علامات الساعة.

ورأيته مرة أخرى بعد أن أذعن للمرض يبتلع الأقراص، وقبل أن يخلد إلى النوم ينادي بصوته الواهن: (سالومي)؛ فتهرع الخادمة، التي تفهم إشارته، وتضع له سطل الماء في مكانه المعتاد، بعد أن تمهد له الفراش.



أفاق للحظات، من أثر المخدر، ونادى:(سالومي.. سالومي)؛ ثم عاد لينهدم كمئذنة شائخة. ولما فتح عينيه الكابيتين، بعد قليل، سألني عن راكان: هل عاد من جلوته؟

نظرتُ إلى أخي لعله يسعفني بالجواب، فإذا أن راكان هو بطل المسلسلة البدوية؟

تغرز الممرضة إبرتها في ذراعه العاري، فيكز أسنانه على الألم، وأبادر لأسند ذراعه إلى كفي، على سبيل المواساة؛ فتنث من كل مساماتها رذاذاً



ناعماً، وتلوح لي خلف السديم، نخلة شاهقة، تكمن في فرعها غيمة من عصافير الحقول، وبضع سعفات، تتهادى على إيقاع من مقام الوجد (بلاك من واحد شفته عوده من الزين رويان).

نتأهب لنحمله، أنا وأخي، لكي نُجلسه على الكرسي ذي العجلات، (يبدو خفيفاً كسلة تمر فارغة)، فتومض، في اللحظة نفسها، عدسة المصور، على ذلك الولد المحفوف بغربته وخوفه واسئلته، ممتثلاً لأصابع تزرر ياقته، وتسوي طاقيته. على طول الممر أدفع الكرسي (يبدو خفيفاً وخالياً)، أتأمل رأسه المأهول بزهور الفل، وأُوغل في أسئلتي: أهذا هو أنت؟

أنت الذي كانت تكفيه قدم واحدة، ليتسلق بها أعتى جبل وأطول نخلة؟!

من ثقب السؤال، تتسلل ثلاث شموس صغيرة، تتربص بي كلما عَنَّ لي الخروج من البيت : (بابا.. بابا) أنحني على آنية الورد، وأقبّلها بحبٍّ؛ فيتحرك رأسُ أبي ويستأنف أحلامه في اليقظة.

يا الله!!

كم أبدو قاصراً وصغيراً؛ فلماذا نتبادل، الآن، أدوارنا أن أكون، بهذه السرعة، أباك، وتكون شمساً رابعة، تشرق قبل أوانها.

لكن، لا. إنه ليس أبي تماماً، بل هو أنا بعد قليل.

قصة قصيرة:

حياة على جرف

■ عواض العصيمي

الثلاثاء، بينه وبين المغيب ساعة نحاسية الأفق.أما أنا، فبيني وبين سكني ليلة كاملة، ستمتص دمي على جرف ناتئ في شاطئ البحر. البعوض مثلاً.... سوف تشق شهوته العارمة للدم عن قدمين مثل مزهريتين محطمتين في الركام. يداي ستهرشهما أيضاً، وأنا تحت سجادة الصلاة، ستلفحني رطوبة البحر في وجهي، وفي ظهري.. أيضاً ستأكل كتفي أرضية الجرف الخشنة.. أما قلبي فهو وحيد، ولن يدعني أنام.

بعد أن خرجت من عملي، وعند الإشارة الأخيرة، كان أمامي طفلان في سيارة يلعبان في المقعد الخلفي، مع أحدهما مفتاح بسلسلة طويلة تنتهي بحلقة معدنية لامعة مثل التي معي.. أقصد مثل التي نسيتها في المكتب أو الكوخ الحقير، الذي لا بد منه لكي أتحدث مع رئيسي بالهاتف كل يوم، وأرسل إليه التقارير، وأسجل الإنجازات الصغيرة بخط أنيق كما يحدث كل يوم أو كما حدث اليوم عندما كتبت استقالتي.. لاحظت على أحد الطفلين عاصفة من البكاء بينما يضحك الذي معه المفتاح ويرقص على المقعد مشكلاً بالسلسلة دوائر مترادفة في وجه الآخر ...... شكراً أيها الشقي الصغير. لقد نسيت مفتاحي وهذا يكفي. حتى لو مضى الطفلان بعيداً، وهذا ما سوف يحدث، حتى لو أعطى الطفل الذي يضحك ذلك المفتاح إلى أخيه الذي يبكي، فصنع دوائر مترادفة أخر، ثم راح يرقص على المقعد، ثم راح يضحك، ثم أخذ الأب المفتاح بعد أن تقف السيارة أمام البيت، وفتح الباب، فدخلوا، وغاصت الشمس في حمأة المغيب، وامتشقت المصابيحَ الغرف، وجلس الرجل إلى جوار زوجته، وتشمم رائحة النهار على رأسها، فلن أنسى السلسة في يد الطفل أمامي.. دوائر في إثر دوائر، دونما غاية محددة، سوى أن

اللعبة راقت للطفل.. لكن، لو لم يكن معه المفتاح هل سوف يقدر على ذلك ؟!. ولو لم تكن السلسة طويلة ومرنة ترى، كم دائرة ستصنع بريقها وسلطتها ومجدها، كما حدث أمامي ؟!. لقد كتبت استقالتي وهذا يكفي.. ومفتاحي الوحيد الذي يفتح باب سكني نسيته في الكوخ !. ولن أعود إلى العمل فيه بينما هو يتمتع بمزايا رجل مهم !. أخبرته في المرة الأولى أن الشمس حارة في التاسعة صباحاً، لكنها بدءاً من العاشرة تجلدني بالسياط، وتمتلئ النافذة المفتوحة بالذباب والرمل، وتصعد إلى دمدمة الأرض، وبقع القار في وجه الإسفلت. وأخبرته في المرة الثانية أن مكيّف الهواء، لم يعد ثمة فرق بينه وبين المروحة اليدوية التي في يدي. وأخبرته أن المطر على قميصي، أصفر بلون خشب السقف، وإذا هطلت السماء بغزارة، صار بلون القا،ر ووخزت كتفي مسامير صدئة، كريهة الرائحة. وأخبرته أن مكتبه الواسع الفخم، لا يشير إلى أن الحياة صعبة بالفعل، كما يقول. وفي كل مرة، كان يضحك، كنت أنا اضحك. اليوم كتبت استقالتي بخط أنيق، والليلة أنام على جرف ناتئ في شاطئ البحر.

في دورتها الأخيرة، ارتطمت السلسة والمفتاح بيد الطفل الذي يبكي.. توجع وزاد بكاؤه. استدار ناحيتي، وأوغل في دمعتين سخيتين فاغراً فاه، مصوباً بريق عينيه إلى عيني الحجريتين، قبل أن تبتعد السيارة.. في البيت سوف يسكت بالتأكيد. هناك غرفة صغيرة مكتظة باللعب سيدخلها مهرولا .ستضيء بضغطة زر عند الباب، وحالما تضيء سترتبك طيور معلقه بجوار النافذة.. سيمر المساء حافياً صغيراً مغموس اليدين في اللعب وسينكر الطفل أنه بكى..

حين آلمته الضربة سحب يده جهتي ووضعها بيني وبينه.. كانت السيارة تبتعد، بيد أن أصابعه



تدفقت نحوي. وعندما همزت سيارتي خلفه لا مستني. أحسست بالضربة في يدي.. كان المفتاح حاداً، وفوق قدرتي على استيعاب أن الحياة صعبه.. لقد طلبت منه أن يمكث معي في ذلك الكوخ ثلاثة أيام في عز الصيف، وقلبت له الموكيت المهترئ، ثم رحت أسرد عليه الرياح التي هبت من جهة الجبال، والرياح التي هبت من جهة الصحراء التي دون البحر، وأدخلت يدي في التجاويف، ثم أخرجت له عقارب ميتة وخنافس سوداء مهشمة جاء ت مع الرياح من صحاري بعيدة.. ذكرت له أن ثمة أنفاس ما تلبث أن تتكسر تحتي وتموت في الرمل الناعم، كلما ارتفعت أنفاسي من شدة الحر.. نتقت أمامه السقف، فتساقطت منه أمطار قديمة صفراء وسوداء تضج برائحة خشب متعفن، يمشي فيه الدود..

كان طفله يبكي في السيارة الفخمة التي أمامي، وكان هو يحادث زوجته بوقار رجل مهم.. كان يبتسم كلما التفتت إليه مندهشة.. آه، إنها نفس الابتسامة الماكرة وهو يقول لي أن الحياة صعبة ....

الثلاثاء، يضرم النار حمراء قانية فوق البحر وظهره إلي.. كان يكفي أن أمد رجلي من فوق الجرف ليتلبسهما غسق نابت من تحت الماء كالنفط.. لا رذاذ على الحواف يخصني سوى أن الريح مضرجة برطوبة غير عادية، والجرف ينوء بوحشة البحر..

تجربتي في كتابة الترجمة والسيرة•

■ د. عبدالرحمن الشبيلي

مقدمـة:

لا أبلغ من أن يحترف الإنسان مهنة من المهن، أو يمارس فناً من الفنون، ثم يقف مع نفسه بعض الوقت لالتقاط الأنفاس، والتأمل في طريقه، ليرى إذا كان يسير في الاتجاه الصحيح، وليجري تقويماً شاملاً لمسيرته، وليعود إلى ما سجله غيره من الممارسين، وإلى ما كتبه المنظّرون من قبله، فيستفيد من ارائهم وخبراتهم.

تلكم هي نظرتي للحديث عن تجربة هي إلى الهواية أقرب من الاحتراف، إذ لم يسبق من قبلُ أن نظرت في تجربة الآخرين، أو فتشت عما سلكه الأسبقون، أو قرأت فيما كتبه أساتذة الأدب عن أصول هذا الفن وقواعده وتاريخه.

فالكتابة في السير والتراجم، بشقيها: سير الذات وسير الغير، هي في الواقع، ميدان فسيح من ميادين الأدب، له أصوله وأنماطه، وقد كُتبت فيه دراسات وأطروحات، وعرفته الثقافة العربية منذ أمد بعيد، حيث يزخر التراث بالمئات من الكتب التي سجلت سير الزعماء والمصلحين وطبقاتهم، وسبرت مكامن القوة في شخصياتهم.

وفي عصرنا الحديث، شاع مصطلح التراجم،وهو تعبير مولّد يطلق على السير الموجزة، ثم انتشر منذ عقود قليلة نمط السير الذاتية (بما فيه اليوميات والذكريات والاعترافات ونحوها)، وهو ما يحكي فيه المرء قصة حياته بأسلوب ضمير الغائب (الرواية) أو باستخدام ضمير المتكلم، وسواء أكتبه بقلمه أم أذن لغيره بالكتابة عنه.

• ألقيت في مؤسسة عبدالرحمن السديري الخيرية - سكاكا بالجوف يوم الخميس ١٥/١٠/١٤٢٦هـ الموافق ١٧/١١/٢٠٠٥م.

يقول د. عبدالله الحيدري في كتابه المتميّز: السيرة الذاتية في الأدب السعودي (دار طويق ١٤٢٤هـ) والذي كان في الأساس رسالة ماجستير، وعلّق عليه الشيخ حمد الجاسر: "والنوع الأول هو المعروف بالسير الغيرية، أو ما يعرف لدى الغرب بتعبير Biography، وهو البحث عن الحقيقة في حياة إنسان فذّ، والكشف عن مواهبه وأسرار عبقريته من ظروف حياته التي عاشها والأحداث التي واجهها في محيطه والأثر الذي خلقه في جيله،... وإن النقد العربي قد استوعب التفرقة بين المصطلحين المركّبين فأطلق تعبير Biography لسير الغير ومصطلح Autobiography للسير الذاتية التي يتحدث فيها الكاتب عن نفسه " أ. هـ.

ومع حداثة هذه التجربة في مجتمعنا، فإن المتتبع لما صدر من سير، من أمثال ما كتبه عزيز ضياء في سيرته الذاتية: حياتي مع الحب والجوع والحرب، ود. غازي القصيبي في كتابه: حياة في الإدارة وفي سيرته الشعرية، والأستاذ أبو عبدالرحمن بن عقيل في تباريحه، أو الدكتور عبدالعزيز الخويطر في لمحات من ذكرياته،وإبراهيم الحسون في خواطره، وهي جميعها من نوع السير الذاتية، وليست تراجم للغير - موضوع هذه المحاضرة، فإنها - في ظني - قد بلغت من الجودة ما يضاهي ما تضمه المكتبات من نتاج عربي، وهي تتفوق بشكل ملحوظ على ما أنتجته المكتبة السعودية من كتب وتراجم للغير.

والمرجو، مع استعراض هذه التجربة، على تواضعها ومحدوديتها، أن تضيء الطريق لكاتب ناشيء، وتكون فيها الفائدة لمتحفّز يمتلك الفكرة ومقدرة الصياغة لكنه يبحث عن الميدان.

البدايات:

لم يكن لي قبل عام ١٤١٤هـ (١٩٩٤م) سابق خبرة في كتابة السير، لكنني استذكر هنا خطوة مرحلية قديمة يعود تاريخها إلى عام ١٣٩٦هـ (١٩٧٦م)، وكانت بمثابة التمهيد لاهتماماتي التوثيقية في هذا المجال.



ففي أواخر سنوات عملي في وزارة الإعلام، جالت في خاطري فكرة تنشيط ذاكرة المشاهدين بتاريخ أبرز أعلام الوطن الذين قدموا خدمات جليلة في سبيل تأسيسه وتوحيده ونهضته، وقد قمت، من ثمّ، بتسجيل حلقات تلفزيونية توثيقية مع بعضهم، تتحدث عن مراحل حياتهم، وعن شهاداتهم الشفوية حول الأحداث التي عاشوها أو شاركوا فيها، وقد استمرت محاولاتي التوثيقية تلك حتى الآن.

كان من تلك المقابلات، ما عرض في حينه وما لم يعرض، ما حوى مادة ثرية معمقة، فعملت منذ وفاة الشيخ محمد بن جبير عام ١٤٢١هـ (٢٠٠٣م) على تحويل تلك التسجيلات إلى سلسلة كتب توثيقية شملت حتى الآن الشيخ حمد الجاسر والأمير مساعد بن عبدالرحمن والأمير خالد السديري وكانت الحوارات التلفزيونية تمثل المتون الرئيسية لتلك الكتب، ثـم



أضفت إليها قراءات من بعض عارفيهم، وصوراً جعلت من سيرهم مواد وثائقية متكاملة، مع وضع هوامش تتضمن تراجم موجزة للتعريف بالشخصيات الأخرى التي عرض لها كل حوار، حتى إن كتابي الأخير عن الأمير مساعد بن عبدالرحمن حمل أربعين تعريفاً بآخرين، ورد ذكرهم في ثنايا مقابلاتي التي كنت أجريتها مع سموه قبل ثلاثين عاماً.

التجربة الرائدة:

لكنني قبل أن أقرر تحويل هذه الحلقات التسجيلية القديمة إلى كتب، بدءاً بكتاب الشيخ ابن جبير الصادر عام ١٤٢١هـ (٢٠٠٣م)، كنت مررت بالتجربة الأثرى والأكثر تميّزاً حتى الآن.

فلقد كنت منذ عام ١٤٠٧هـ (١٩٨٧م) أرسم في الذهن - كما يفعل المعماريون - تصوّراً لكتاب يوثق سيرة أحد أقاربي ممن اتفق المجتمع على تقدير أعماله وخدماته، وكنت أبحث عن متعهد ينفذ الرسومات والتصاميم، ويحيل الفكرة إلى واقع، أو كما يتمنى إنسان تحوك في خاطره مشاعر، أن يتحول إلى شاعر يصوغ أفكاره في قصيدة معبرة.

وبعد طول انتظار حاولت خلاله جهتان التصدي لتنفيذ الفكرة، كان على المصمم نفسه أن يتحول إلى مقاول، وأن يقوم بتنفيذ أفكاره بنفسه، فإذا بالكتاب يرى النور في شوال عام ١٤١٤هـ (١٩٩٤م)، كتاب من (٥٠٠ صفحة)، يتحدث عن سيرة طيب الذكر، السفير الشيخ محمد الحمد الشبيلي، ويلقى من الحفاوة ما لم يحلم به مؤلفه.

التجارب اللاحقة:

أما التجربة الثالثة، من تجارب كتابة السير والتراجم، فقد مررت بها بين عامي ١٤١٧هـ و ١٤٢٠هـ (١٩٩٧ - ٢٠٠٠م) حينما كنت أعكف على تأليف كتابي التوثيقي - السالف ذكره - عن تاريخ الإعلام السعودي، وقد أسفر البحث عن التطرق إلى عشرات من رجال الثقافة والإعلام في المجتمع السعودي، مما شجع على كتابة مقالات عن كل شخصية على حدة، نُشرت مجّزأة في جريدة الجزيرة، ثم مجتمعة في كتاب (إعلام وأعلام)، الصادر بمناسبة الذكرى المئوية لتأسيس المملكة ١٤١٩هـ (١٩٩٩م).

ثم دخلت في تجربة رابعة من نوع أكثر عمقاً في مجال كتابة التراجم الموجزة، عندما التزمت لجريدة عكاظ في مطلع شهر شعبان عام ١٤٢٤هـ (سبتمبر ٢٠٠٣م) - تحت عنوان: تحية وبعد - بكتابة سلسلة مقالات عن شخصيات متوارية عن الأضواء عازفة عن الظهور، مع أنها بلغت مكانة عالية في المجتمع، وقدمت جهوداً مشكورة في خدمة الوطن، وقد أفاد نشر تلك المقالات سلفاً في الصحافة في تلقي بعض التعليقات والتصويبات عليها، ومع الأيام صارت تلك الحلقات أكثر تفصيلاً وطولاً، وأصبحت تشمل شخصيات قديمة ومعاصرة، أحياءً أو أمواتاً، كما توسَّع نشرها صحفياً ليشمل جريدتي الحياة والشرق الأوسط ومجلتي الشورى والمجلة، وهي حلقات تنتظر الظهور قريباً بإذن الله - بعد جمعها - في كتاب بعنوان: أعلام بلا إعلام.

إن ما يجمع بين هاتين التجربتين الأخيرتين، على اختلافهما النسبي من حيث الإطالة والعمق، هو سمة الاختصار وتجنب الإغراق في تفاصيل الحوادث، وسهولة اللغة والتراكيب وبساطة الأسلوب، مع الانعتاق من التشدد في شروط البحث الأكاديمي وقيوده، ذلك أن تلك السير والتراجم قد أعدت أساساً للنشر الصحفي، وكانت موجهة إلى جمهور المثقفين والمتخصصين وإلى السواد الأعظم من القراء على حدٍ سواء.

وقد ركزت تلك السير والتراجم على الجوانب الطريفة والمشوّقة، وربما المجهولة من حياة شخصياتها، وروعي في انتقاء الأسماء أن تكون لها مكانة شعبية في المجتمع أو ذات ماض مؤثر وناجح، وبالتالي، تجتذب القارئ وتغريه على الاستزادة من المعلومات الإنسانية عنها.

أما الصنف الخامس والأخير من هذه التجارب، فهو الإشراف على تأليف تراجم لشخصيات عامة، في شكل مشروعات كتب تقوم بها جهات خاصة أو حكومية، يقتصر دوري فيها، مع التنسيق بين المعدّين، على التحرير العام من ناحية، وعلى الإسهام في كتابة بعض فصولها بالمشاركة مع كتاب آخرين، وتشمل وظيفة المحرر هنا المحافظة على التجانس في نسق الكتاب وصياغته وأسلوبه، رغم تنوع أقلام المشاركين في التأليف واختلاف طريقتهم وأنماطهم في الكتابة، كما تشمل التأكد من اتساق معلوماته التاريخية.

وقفات للتأمل:

ولأن التجربة،التي مررت بها في أثناء إعداد سيرة السفير الشبيلي كانت الأكثر ثراءً بين كتب السير التي أصدرتها، فإنني أرجو أن تسمحوا لي بالوقوف عدة وقفات عند أبرز ملامحها للتعرف على أسباب التميز فيها:

الوقفة الأولى: كانت شخصية ذلك الكتاب أحد السفراء السعوديين، المشهود لهم بالشمائل الكريمة، التحق في مطلع الخمسينيات الهجرية (أوائل الثلاثينات الميلادية) بالديوان الملكي، ثم خدم بلاده ومواطنيه سفيراً في خمس دول، وأمضى نحواً من ستة عقود في الوظيفة العامة، مكرساً وقته وجهوده وإمكاناته في إسعاد غيره، وصون سمعة وطنه، وعُرضت عليه الوزارة فاعتذر، فكان احتفاء المجتمع بصدور الكتاب بمستوى منزلة الرجل، لدرجة غفرت كون مؤلفه أحد الأقربين.

فأهمية الشخصية التي يكتب عنها، والتوافق في

الدكتور عبدالرحمن الشبيلي:

- من مواليد عنيزة بالقصيم سنة ١٣٦٣هـ (١٩٤٤م)، له ابن وبنتان.
- دكتوراه في الإعلام ١٣٩١هـ (١٩٧١م) من جامعة ولاية أوهايو.
- أسهم في تأسيس إذاعة الرياض وتلفزيون الرياض، وقدم برامج إعلامية حوارية، ونشر مقالات ومحاضرات توثيقية.
- عمل مديراً عاماً للتلفزيون وأستاذاً للإعلام في جامعة الملك سعود.
- وكيل وزارة التعليم العالي وأمين عام المجلس الأعلى للجامعات الأسبق.
- عضوية مجلس الشورى والمجلس الأعلى للإعلام.

شهادة المجتمع على منزلته فيما تميز به، كانت دون شك، العامل الأول في نجاح المؤلِّف، والإقبال على اقتنائه والحفاوة به، ومفتاح تعليقات وسائل الإعلام عليه.

الوقفة الثانية: كان الكتاب في مسوداته المبكرة يضم ثلاثة فصول، وكانت صياغته تتسم بالعمومية، ومعلوماته غير موثقة، ولكن ما أن انفتحت أمام المؤلف خزينة الأوراق الخاصة، وألبومات الصور التي كانت تزخر بها غرفة المقتنيات الشخصية للسفير الشبيلي، حتى تغيّرت صورة الكتاب، وتحول حجمه من فصول ثلاثة إلى ثمانية، وزادت الصور إلى عشرة أضعاف، وحظي بالكثير من الأسانيد والوثائق الخاصة، وصارت المعلومة تدل على المعلومة، والصورة توحي بالفكرة، والوثيقة تقود إلى مصادر المعلومات، وقد تعلمت من تلك التجربة أن البحث عن القرائن والدلائل والتواريخ غاية تستحق شد الرحال، مهما كانت القيمة أو كان التأخير.

وبين ما تم العثور عليه، شواهد وإثباتات أصيلة للعديد من القصص والروايات التي وردت على ألسنة رواتها، ومع ذلك فقد حالت ظروف أفغانستان والعراق في تلك الفترة وما تزال، وهما من البلدان التي عمل فيها سفيراً، دون أن يحصل المؤلف منهما على ما يخدم أغراضه.

ومن الطبيعي، أن يشكّل العثور على صورة تخدم موضوعها، وتوضع في مكانها المناسب في الكتاب، سعادة لا توصف لأي مؤلف، وأن ترد قصة في ثنايا الروايات وقد مضى على حدوثها نصف قرن، ثم يجد الباحث بين أوراق شخصية الكتاب ما يؤكد تفاصيل الواقعة وشخصياتها وتواريخها، وأن تحتل صورة مكاناً بارزاً في إخراج الكتاب، ثم يجد مؤلفه، والكتاب ماثل للطبع، من يعرّف باسم صاحبها، فهي مواقف تمثل متعة في عالم مؤلف السير والتراجم لا يقدر مدى الإحساس بها إلا من مرّ بها أو جرّبها، بل إن استذكارها، مع مضي الزمن، لا يقل نشوة وإسعاداً عن تذكر مطاردة قنص عاشها هواته.

الوقفة الثالثة: وهي تتصل بضرورة إلمام المؤلف بخلفية الموضوع، وبالمعلومات التاريخية المتعلقة به، وبالشخصيات الواردة فيه، إذ لا أتخيل مؤلفاً يمكنه أن يكتب عن شخصية لا يعرف عنها إلا القليل، فضلاً عن أن يكون قد تأثر بها أو تشبعّ بمعرفتها أو تفاعل معها من قبل، وإن من نافلة القول: إن أفضل أنواع الكتابة وأكثرها صدقاً وبلاغة هو ما يصدر عن عاطفة، مهما بلغ احتراف المؤلف وقدرته على الصياغة والتعبير.

وما من شك في أن القراءة المكثفة في الموضوع الذي يراد التأليف فيه، وزيارة المواقع التي سيتم

مؤلفاته في مجال الإعلام:

- نحو إعلام أفضل (طبعتان) ١٤١٢هـ (١٩٩٢م).
- إعلام وأعلام ١٤٢٠هـ (١٩٩٩م).
- الإعلام في المملكة العربية السعودية – دراسة توثيقية ١٤٢١هـ (٢٠٠٠م).
- صفحات وثائقية من تاريخ الإعلام في الجزيرة العربية ١٤٢٣هـ (٢٠٠٢م).
- حمد الجاسر ١٤٢٤هـ (٢٠٠٣م).
- الملك عبدالعزيز والإعلام ١٤٢٤هـ (٢٠٠٣م).

التطرق إليها، والالتقاء مراراً مع الشخصية التي سيكتب عنها، هي بعض الوسائل التي تعزز من قدرة الكاتب على استيعاب موضوعه وإجادة الكتابة فيه.

الوقفة الرابعة: وتتحدث عن مرحلة يمكن تسميتها: مرحلة التدقيق والمقارنة، إذ لا بد لكل مؤلف في موضوع ذي صلة بالتاريخ، ألا يأخذ مأخذ التسليم كل ما يقع عليه ناظراه من معلومات دون أن يعرضها للتحقيق والمقارنة، فضلاً عن ضرورة أن يراجع مسوداته ويقارن بين تواريخ تخص واقعة بعينها وردت في مواضع مختلفة من كتابه، حتى لا يحصل تنافر في الكتاب نفسه.

إن المعلومات الخطأ التي ترد في بعض الكتب، لا تشوه الكتاب نفسه بقدر ما تربك الكتب والأبحاث التي تبنى عليه، وما لم يقم الناقل بالتثبت من كل معلومة ينقلها، فإن الخطأ قد يتراكم، ويصبح جرثومة (فيروساً) يلوّث جميع ما يصدر بعده من كتب أو نقولات.

كنت ذات مرة أقرأ في رسالة قديمة حررها أحد الأشخاص الذين ألفت عنهم، وكان يتحدث فيها عن موضوع يفهم منه أنه يتعلق بوفاة الملك خالد وتولي الملك فهد مقاليد الحكم في البلاد، وبالعودة إلى أحد الكتب الإعلامية التي صدرت عن تلك المناسبة للتثبت من التاريخ، تبين أن خطأ مطبعياً في تلك السنة (١٤٠٢هـ) قد وقع في الكتاب الإعلامي نفسه، ولم يكن مؤلفه قد اكتشفه قبل تلك المقارنة.

وفي مثال آخر، تضمن كتاب عن تطور الحكم والإدارة في المملكة، صدر عام ١٣٨٥هـ(١٩٥٦م)، معلومات تشير إلى أن وزارة الإعلام قد أُنشئت استناداً إلى الأمر الملكي رقم (٤٣) الصادر عام ١٣٨١هـ (١٩٦١م)، وبتحقيق ذلك، اتضح أن المستند



المذكور لا يمت إلى الموضوع بصلة، وأن الأصح هو - ما عاشه معظمنا - أمر ملكي آخر صدر برقم (٥٧) في العام الذي تلاه، وهو ما أُثبت في كتابي عن تاريخ الإعلام السعودي الصادر عام ١٤٢١هـ (٢٠٠٠م)، لكن أحد كتب السيرة حديثة الصدور رجّح الرأي الأول لأسبقيته، دون التثبت من دقته.

ومن اللافت للنظر، أن هناك العديد من السير والتراجم التي صدرت في المملكة، وهي تمتلئ بالمعلومات الجديدة والموضوعات الأصيلة الجيدة، لكنها لا تُسند بتواريخ أحداثها، ولا تختم بالفهارس والكشافات التي تساعد الباحث والقارئ على تحديد مواضع المعلومات عند العودة إليها، وفي ظني أن توثيق التواريخ وتكشيف المعلومات، هما أهم عناصر الكتابة التاريخية، ويمثلان عصب التأليف في مجال السير والتراجم، ودليلاً على تمكّن الكاتب ومثابرته وجدّيته في البحث والتنقيب.

الوقفة الخامسة: وتتناول مرحلة النقد والتقويم، وهي مرحلة لا يوليها بعض المؤلفين ما تستحقه من اهتمام، مع أنها يمكن أن تكشف لهم عيوباً لا يكون في مقدور المؤلف أن يكتشفها بمفرده، وقد قيل فيما مضى: إن المؤلف يقرأ نفسه، وبالتالي فقد يمر عليه الخطأ المطبعي وغيره دون أن يلحظه.

ولعل أفضل طريقة لنقد الكتاب وتقويمه قبل

طبعته النهائية أن يعقد المؤلف ندوة للمتخصصين في موضوعه، أو لمجموعة من النقاد المحتملين لمعرفة آرائهم في مسوداته الأخيرة، فقد تكفل هذه الخطوة تخفيف الملحوظات التي تبدى على الكتاب فيما بعد (وقديماً قيل: من ألف فقد استهدف).

وهنا ينبغي على المؤلف ألا يتأفف من أي رأي، ولا يتذمر من التأخير، أو من كثرة التعديلات وإعادة الصياغة، فالتصويبات التي ترد إليه قبل الطبع تفضُل بمراحل ما يتلقاه بعده، وخير له أن يتلمس عيوب كتابه قبل الصدور من أن يُلفت نظره إليها بعد فوات الأوان، وعندما يحظى المؤلف بمساعدة من محترف في التصحيح والمراجعة والصياغة، أو عندما يكون هو نفسه مؤهلاً لذلك، فإنها قمة الحظ في عالم الكتابة والتأليف، وإن ما يقضيه المؤلف من جهد ووقت في هذه المرحلة خير وسيلة لإتقان العمل وتحري كماله وضمان تميّزه، ودليلاً على احتراف المؤلف وثقته بنفسه.

إن كل ما أصدرته حتى الآن من كتب في مجال الإعلام أو في مجال السير، قد استغرق ما بين عشر إلى خمس عشرة مسودة (بروفة) طباعية، مارست فيها أقصى درجات المراجعة والتمحيص الممكنة، ومع ذلك فلم يخل واحد منها من الأخطاء بأنواعها.

الوقفة السادسة: هل يمكن الحكم على ما يكتبه كاتب السير والتراجم بالموضوعية والحيدة ؟، أو بعبارة أخرى: هل تتوافر شروط النزاهة في كل ما يكتبه مؤلفو التراجم ؟

أستطيع القول: إن من الصعب على أي كاتب سيرة المحافظة على ذلك، خاصة إذا ما كان اختياره للأشخاص مبنياً على الإعجاب المسبق بهم، وأضيف: إنه مالم تعرض كتابات السير على المعايير العلمية وتطبق عليها، فإن من غير المحتمل أن يحافظ كتاب السير على موضوعيتهم وحيدتهم في كتابات أعدت للأغراض الإعلامية، أو لاستكشاف جوانب التميز في الأشخاص، وإن أحرى ما قد يلتزمون به هو موقف الاعتدال في الطرح، وتجنب المبالغات في الثناء والألقاب.

السؤال الثاني الذي يرد في هذا المقام، هو عن مدى تقبّل تلك الشخصيات لما يُكتب عنهم، خاصة أن الكثيرين قد لا يعرفون محتوى تلك الكتابات قبل نشرها، وهو ما يتم في الغالب مع معظم ما كتبت، ولعل في استشارة المحيطين بالشخصيات المترجم لها ما يضمن دقة المعلومات الواردة فيها، وضمان رضا صاحب الشأن عما ورد عنه من معلومات.

الوقفة السابعة: وتتصل - باختصار - باشكالية ما يواجهه بعض كتب السير والتراجم في بلادنا خاصة، من بعض الحساسيات الاجتماعية، نتيجة إيراد كلمات أو معلومات أو قصص قد تثير النعرات القبلية والإقليمية، وربما يلحق بها مسألة الدخول في قضية الأعمار وأمثالها، وهي أمور يحتاج التطرق إليها كثيراً من الحذر والحيطة، فلقد تسببت إثارة مثل هذه الموضوعات في إيقاف العديد من مؤلفات السير والتراجم حتى بعد فسحها وتداولها.

الوقفة الثامنة: وإن من عوامل التشويق في مثل هذه الكتابات، هو التوسع فيما يمكن تسميته عنصر "الشخصنة"، وهو الغوص في أعماق الشخصية، والتطرق في السياق نفسه إلى أسماء شخصيات أخرى ذات عاقة بالشخصية الرئيسية.

لقد سبق الإخوة من كتاب الحجاز، قديمهم وحديثهم، إلى الأخذ بهذا العنصر والاهتمام به، حتى لا تكاد مقالة أو كتاب سيرة تخلو من الحديث عن مأكل الإنسان، وعن رفاقه، وعن اهتماماته

الأسرية، وعن الإتيان بأسماء من حوله من أقاربه، مع رفع الكلفة عند الكتابة عن الدواخل النفسية والإنسانية.

فمتى ما توافر عنصر "الشخصنة"، وهو أمر أساسي في كتابة السير، ضمن عوامل الظرف والتشويق وسهولة العبارة والإيجاز، فإنها - في ظني - مدعاة لإمتاع القارئ وجذبه وارتياحه.

وبعد:

هذه، في الواقع، خلاصة تجربة متواضعة امتدت اثني عشر عاماً، من الانشغال في فن لم يكن لي سابق خبرة فيه أو دراسة أو تخصص، ومن الطبيعي أن تكون عرضة للنقد واختلاف الرأي، خاصة إذا ما عرفنا أن تلك التراجم - على تباين أصنافها - قد التزمت منهجاً مبسطاً في الأسلوب، يجتذب القارئ العادي، لكنه يتحرر من وثاق البحث العلمي المتشدد.

ومع تواضع هذه التجربة القصيرة التي مررت بها، والتأكيد على أنها لا تتعدى الهواية ولا تدخلني بين المؤرخين، فلقد اتخذت المحاولات التي قمت بها للكتابة في السير قوالب وأنماطاً فنية مختلفة، لكنها - بأي حال من الأحوال - لم تأخذ الشكل التقليدي لكتابة السير، التي تبدأ عادة بمكان الولادة وتاريخها ثم بسرد المراحل العلمية والعملية وعدد ذريته وتنتهي بذكر تاريخ وفاته، بل نحت منحى متحرراً يركز في بدايته على أبرز ملامح الشخص أو خصاله وما هو معروف أو مجهول عنه، وغالباً ما توضع المعلومات البيوغرافية في نهاية المقال أو البحث، وهناك سيرُ أخذت نمط استعراض عمل فكري قام به، وذلك كما حصل عند استعراض سيرة خليل الرواف وابراهيم الحسون، وعلى كل حال، فإنه عندما يأتي الأمر إلى تقويم منهج الكتابة ونقد اسلوبها فإنه شأن ينبغي أن يصدر من غير كاتبها.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته

لقطات من محاضرة الدكتور الشبيلي:

- قدم للمحاضرة وأدارها الدكتور عبدالله الحيدري أستاذ الأدب غير المتفرغ بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية.
- شارك في الحوار كل من الدكتور عبدالواحد الحميد وكيل وزارة العمل للتخطيط والتطوير و الكاتب المعروف، و الدكتور زياد بن عبدالرحمن السديري مدير عام مؤسسة عبدالرحمن السديري الخيرية.
- تضمنت المحاضرة رصداً لتجربة الشبيلي،

مؤلفاته في التراجم والسير:

- صالح العبد الله الشبيلي - حياته وشعره ١٤١٤هـ (١٩٩٤م).
- محمد الحمد الشبيلي (أبو سليمان) ١٤١٤هـ (١٩٩٤م).
- محمد بن جبير (طبعتان) ١٤٢١هـ (٢٠٠١م).
- مساعد بن عبد الرحمن آل سعود ١٤٢٥هـ (٢٠٠٤م).
- أعلام بلا إعلام: (تحت الإعداد) ١٤٢٦هـ (٢٠٠٥م).
- خالد بن أحمد السديري (تحت الإعداد) ١٤٢٧هـ (٢٠٠٦م) .

على مدى اثني عشر عاماً، في تأليف كتب يؤرخ فيها لحياة بعض المشاهير، الذين ذكرهم في محاضرته.

وفي ختام المحاضرة، فتح باب النقاش للحضور، وقد قدم الدكتور عبدالواحد الحميد مداخلة وأبدى عدداً من الملاحظات النقدية ومن ضمنها ما ذكره الشبيلي أن أفضل أنواع الكتابة هو ما يصدر عن عاطفة، وربطها الدكتور الحميد بالوقفة الأخرى التي تحدث فيها المحاضر عن الموضوعية والحيدة، وشروط النزاهة في كتابة السيرة، إذ لا بد من تطبيق معايير كتابة السيرة في محاولة لإيجاد نوع من الاعتدال بل إن المحاضر قال إن أقصى ما يمكن أن يحققه كاتب السيرة هو عدم المبالغة. وفي الوقفة السابعة تحدث عن مدى التقبل، وضمان رضا صاحب الشأن، عما ورد عنة ثم في الوقفة الثامنة تحدث عن الحساسيات الاجتماعية، هذه الخلطة تضعنا أمام إشكالية فمن ناحية أصدق أنواع كتابة السيرة هي ما يصدر عن العاطفة وأنا لا أعتقد أن العاطفة محايدة، إذ يصعب أن تكون محايدة عندما تكون متعلقة بشخص ما، العاطفة قد تغلب ومن ثم قد يأتي ذلك على حساب شروط النزاهة.

والآن عندما نتحدث عن الموضوع بشكل



عام نعتقد أن كتابة السيرة في مجتمع كمجتمعنا تنطوي على حساسية اجتماعية، يبدو أن هذه المعادلة صعبة التحقيق. وثمة مشكلة إذا كان من ضمن الأشياء التي بذهن كاتب السيرة أن يُرضي صاحب السيرة؛ فالسيرة هي سيرة هذا الإنسان بايجابياته.

أما التجربة الرابعة المتعلقة بسلسلة مقالات عن شخصيات متوازية الطباع سوف تعرض في كتاب تحت عنوان: "أعلام بلا إعلام"، فلها أهميتها، لقد قرأت سلسلة المقالات التي نشرتها في الصحافة المحلية، وربما كانت من أجمل ما كُتِب في موضوع السيرة لأنها تتحدث عن أشخاص غير معروفين كثيراً، ولكن كانت لهم إسهامات كبيرة، وكان لهم دور في مسيرة الإعلام، كل بحسب الموقع الذي عمل فيه. ونتمنى عندما يصدر هذا الكتاب وأمثاله أن الناس الذين أسسوا الإعلام القوي في بلادنا أن يأخذوا نصيبهم من الإنصاف، وبالتالي في ظني أن التجربة الرابعة لا تقل أهمية عن التجربة التي تفضلتم وقلتم أنها الاثرى وهي كتبت عن محمد الشبيلي "رحمة الله".

وأضاف الدكتور الحميد لقد كتب المحاضر عن الآخرين وفي ظني في مسيرته الشيء الكثير الذي يمكن أن يقدم للناس من خلال سيرته الذاتية التي يقدمها بقلمه. وأنا أعرف وقرأت كثيراً عن مسيراتك الإعلامية في التلفزيون وفي الإذاعة والجامعة وأنت اختلطت بكثير من الرجال الذين أسسوا الإعلام السعودي سواء كان الشيخ جميل العجلان أو رجالات التعليم العالي مثل الشيخ حسن آل الشيخ، عندما كنت وكيل وزارة التعليم العالي، والشيخ محمد حبيل وغيرهم، وكانت لك انطباعاتك عنهم. وفي ظني هناك الكثير من



القياديين المؤثرين، عندما يتركون مناصبهم لا يكتبون عن تجاربهم وذكرياتهم وما عاصروه، على الرغم من أهمية توثيق تجربتهم وخبراتهم.

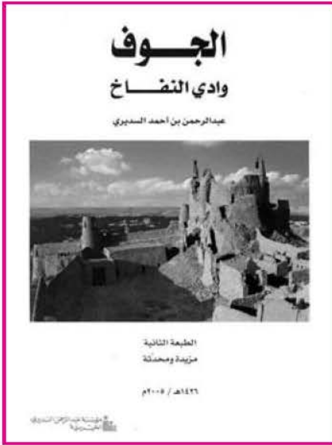
أذكر عندما انتهى عمل الدكتور بكر بن بكر مدير جامعة الملك فهد للبترول والمعادن، وكنت عضواً في هيئة التدريس في وقتها كتبت مقالاً ورجوته أن يوثّق تجربته في الجامعة التي قدمت نموذجاً مختلفاً عن بعض النماذج الموجودة في التعليم العالي ولكن للأسف لم يتحقق هذا. ولذا أتمنى من الدكتور الشبيلي أن يتحفنا بكتابة القادم عن سيرته الذاتية.

- وقد علق الدكتور الشبيلي على مداخلة الدكتور الحميد أنه لم يقصد من العاطفة ألا تأتي كتابته موضوعيه علمية نزيهه، بل كان المقصود منها الإيمان بما يكتب عنه مشيراً الى أنه لم يكتب عن شخص لم يكن مؤمناً بالكتابة عنه.

وبعد ذلك تحدث الدكتور زياد بن عبدالرحمن السديري، وقال: تبعاً لما قاله الدكتور عبدالواحد بإمكانية الجمع بين العاطفة والموضوعية، وتناول القول الدكتور عبدالرحمن الشبيلي بأن العاطفة مهمة لدفع الكاتب للكتابة؛ أليس هناك أيضاً فارق بين سيرة وسيرة؛ سيرة يكتبها المعاصر، ويكون الغرض منها هو الرصد فقط؛ وسيرة يكون هدفها التحليل، وهذه قد تأتي بعد وقت طويل. نحن نرى كثيراً من السِيَرَ التي تكتب الآن عن أشخاص عاشوا قبل قرون، ولو أن أحداً كتب أو رصد سيرهم في وقت توافر هذه المعلومة لأمكن حفظها وتناولها بالتحليل، من قبل أطراف لا تربطهم أي عوامل أو روابط عاطفية بالمتحدث عنة، أنا أقول أليس من الواجب التمييز بين أنواع السِيَرَ إذ ربما كثير من السير التي تناولها الدكتور عبدالرحمن الشبيلي والآخرون هي من النوع الأول، الذي يقصد منه الرصد، وتأتي استشارة صاحب السيرة أو المعني بها للتأكد من صحة المعلومة، أما عندما يكون الأمر مجال تحليل ودراسة أقرب منها إلى الجانب التاريخي؛ فعندها أعتقد أن الاستقلالية التامة والموضوعية الكاملة تكونان عنصرين أساسيين. وربما يجب أن يكون شرطاً أن لا يكتب في هذا المجال إلا من يتحلى بالموضوعية الكاملة.

- وعلق الدكتور الشبيلي أنه لا يُعد نفسه راصداً بل باحثاً هاوياً يكتب ما يؤمن به عن الشخصيات التي يتصدى للكتابة عنها، مشيرا الى الفرق بين الراصد المحترف الذي يكتب عن أي شخصية بهدف العمل والأحتراف فقط وبين الباحث الذي يكتب بهدف عاطفي مؤمن بما يكتب عنهم.

- الفنان التشكيلي مؤيد الغنام تحدث عن لغة كتابة السيرة وبين أن تكون لغة شعرية أو لغة سردية عادية..



الجوف
وادي النفاخ
الطبعة الثانية

المؤلف: معالي الأمير عبدالرحمن السديري
أمير منطقة الجوف سابقا
مراجعة: د. خليل بن ابراهيم المعيقل
رئيس قسم الآثار والمتاحف بجامعة الملك سعود سابقا
الناشر: مؤسسة عبدالرحمن السديري الخيرية
الطبعة الثانية: مزيدة ومحدثة ١٤٢٦هـ - ٢٠٠٥ م.

كتب الدكتور زياد بن عبدالرحمن السديري، مدير عام مؤسسة عبدالرحمن السديري الخيرية، مقدمة الطبعة الثانية للكتاب، الذي يعد اليوم أهم مرجع تاريخي عن منطقة الجوف قائلا:

"صدرت الطبعة الأولى من هذا الكتاب عام ١٩٨٦م، وتولت نشرها مؤسسة عبدالرحمن السديري الخيرية، بالتعاون مع دار ماكميلان لما وراء البحار - لندن. ومن دواعي السرور أن الكتاب، في طبعته الأولى لاقى قبولاً جيداً من لدن الباحثين والقراء، الذين عدّوه أهم مرجع عن تاريخ منطقة الجوف، يصدر باللغة العربية.

ونظراً لاهتمام الكثيرين من غير الناطقين باللغة العربية بمادة الكتاب، سواء كانوا أفراداً أو هيئات، اقترحت إدارة المؤسسة إصدار طبعة باللغة الإنجليزية، ووافق معالي الأمير عبدالرحمن السديري على ذلك. وتولت دار استاسي إنترشيونال للنشر - لندن نشر الكتاب. وصدرت الطبعة باللغة الإنجليزية تحت عنوان:

(The Desert Frontier of Arabia "AL-JAWF" Through the Ages)

قـــراءات

ومن دواعي السرور ، أيضاً، أن طبعته باللغة الإنجليزية لاقت قبولاً جيداً، وحظيت بتعليقات إيجابية، أبرزت القيمة المرجعية لهذا الكتاب، حتى وصف في مقالة بمجلة الشؤون الأسيوية (ASIAN AFF AIRS)، التي تصدر عن الجمعية الملكية للشؤن الآسيوية – لندن، بأنه يُعد مرجعاً من الدرجة الأولى ' عن المنطقة الشمالية بالمملكة العربية السعودية.

ونظراً لأهمية هذا الكتاب، وقيمته المرجعية العالية، ونفاد طبعته الأولى باللغة العربية، والحاجة إلى توفيره للباحثين والقرّاء وتمشياً مع رغبة معالي الأمير عبدالرحمن السديري، رأت إدارة مؤسسة عبدالرحمن السديري الخيرية إعادة طبعه باللغة العربية،بعد مراجعة المتن والصور والخرائط، وتحديث المعلومات الإحصائية، والإفادة من بعض الملحوظات، التي وردت على الطبعة الأولى.

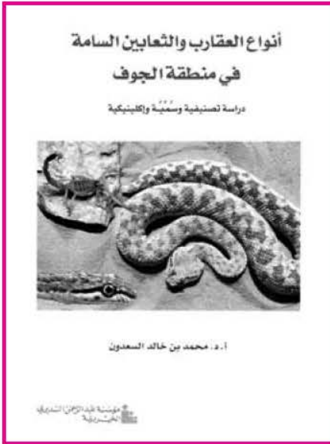
وقررت إدارة المؤسسة أن تعهد بهذه المهمة إلى الأخ الدكتور خليل المعيقل، رئيس قسم الآثار والمتاحف بجامعة الملك سعود (سابقاً)، وعضو هيئة تحرير مجلة أدوماتو، التي تصدر عن مؤسسة عبدالرحمن السديري الخيرية، وقبل هذا هو أحد أبناء منطقة الجوف، الذين واكبوا مسيرة المؤسسة منذ انطلاقها في عام ١٤٠٣هـ (١٩٨٣م).وقد راجع الدكتور خليل النصوص وتولّى تقييمها وتجهيزها من النواحي الفنية.

ويسرّني أن أسجل الشكر الجزيل له، على كل ما قدمه من عمل في هذا المضمار. كما أشكر الزملاء في مؤسسة عبدالرحمن السديري الخيرية، الذين قدموا الإسناد اللازم للدكتور خليل في مهمته، كما أسهموا كلٌ في مجاله، في سبيل إنجاز هذا العمل.

كما لا يفوتني أن أشيد بجهود كل الأخوة والأصدقاء، الذين شاركوا في إعداد الطبعة الأولى من الكتاب، شاكراً لهم جهودهم وتعاونهم، وهم: الدكتور عارف مفضي المسعر، والدكتور جيوفري كينج، والأستاذ صالح العلي الصالح، والأستاذ علي محمود الراشد، والعقيد كولن بادوك، والأستاذ ياسر مصطفى جابر، والدكتور أحمد عبدالله السالم، ومحمديو نس الهذيل (رحمة الله)، ويوسف ناصر الحشاش (رحمة الله)، والأستاذ يوسف أبو عواد، والشيخ عبدالرحمن نصر الله.

سائلاً المولى – عزّ وجلّ – أن يوفق الجميع لما يُحب ويرضى، إنه سميع مجيب."

تضمن الكتاب ٣٣٩ صفحة من القطع الكبير اشتملت على ثمانية فصول الفصل الأول عن أهمية تاريخ منطقة الجوف والفصل الثاني عن منطقة الجوف في عصور ماقبل التاريخ و الفصل الثالث عن منطقة الجوف في عصور ماقبل الإسلام والفصل الرابع عن تاريخ منطقة الجوف من ظهور الإسلام حتى بداية الدولة السعودية الأولى والفصل الخامس عن التاريخ الحديث لمنطقة الجوف و الفصل السادس عن رحلات الرحالة الأوربيون الى منطقة الجوف والفصل السابع عن سكان منطقة الجوف وعاداتهم و الفصل الثامن عن ملامح النهضة الحديثة في منطقة الجوف



أنواع العقارب والثعابين السامة في منطقة الجوف

المؤلف: أ.د. محمد بن خالد السعدون
كلية العلوم - جامعة الملك سعود
الناشر: مؤسسة عبدالرحمن السديري الخيرية.

يأتي هذا الكتاب ثمرة بحث ميداني موّلته مؤسسة عبدالرحمن السديري الخيرية، قام به المؤلف لدراسة أنواع العقارب والثعابين السامة بمنطقة الجوف، وهو أول كتاب يصدر عن هذا الموضوع في منطقة الجوف. ونأمل أن يسهم الكتاب بإذن الله سد الفراغ الموجود في المكتبة العربية عن العقارب والثعابين السامة، ومساعدة المتخصصين في استخراج الأمصال الطبية إضافة إلى خدمة الباحثين والمهتمين بالحياة الفطرية بالمملكة العربية السعودية.

اشتمل هذا الكتاب ستة فصول ؛ تناول الفصل الأول مقدمة عن المفاهيم الأساسية لبيولوجية العقارب والثعابين السامة، وتوزيعها الجغرافي، وتناول الفصل الثاني منطقة الدراسة بالجوف، بينما عالج الفصل الثالث أنواع العقارب والثعابين في منطقة الجوف. وتناول الفصل الرابع سموم العقارب والثعابين ودرجة سميتها وتأثيراتها. وخصص الفصل الخامس لعرض إحصائيات لدغات العقارب وعضات الثعابين السامة بالجوف ؛ أما الفصل السادس فقد تناول توعية المواطنين بعلاج التسمم من العقارب والثعابين السامة.

كما تضمن الكتاب عدداً كبيراً من الصور الفوتوغرافية وخرائط تواجد العقارب والثعابين في المملكة وفي منطقة الجوف.

ظهور الخطوط الحديدية وآثارها في المشرق العربي

(في القرن الثالث عشر الهجري - التاسع عشر الميلادي)



المؤلف: نوف بنت رزق الروضان

محاضرة في كلية التربية للبنات بالجوف

الناشر: مؤسسة عبدالرحمن السديري الخيرية

الطبعة الأولى ١٤٢٧هـ - ٢٠٠٦ م.

كان لظهور الخطوط الحديدية في مصر وبلاد الشام، في القرن الثالث عشر الهجري - التاسع عشر الميلادي، آثار مهمة في المجالات السياسية والعسكرية، والاقتصادية، والاجتماعية. وعُدّ اختراع الخطوط الحديدية حدثاً عالمياً مهماً، أسهم في تطور وسائل النقل البري وبدء عهد جديد في تاريخ الحضارة العالمية، كما كان له دور في توجيه أهداف الدول الصناعية وسياستها ؛ للتغلغل الأوربي في بلدان المشرق العربي، طوال القرن التاسع عشر الميلادي.

الكتاب يُلقي الضوء على تنافس الدول المتقدمة صناعياً بهدف الحصول على حقوق امتياز إقامة مشاريع الخطوط الحديدية في المشرق العربي، خلال القرن التاسع عشر الميلادي ؛ إضافة إلى تقييم التبديلات التي تحققت من وراء إنشاء الخطوط الحديدية، في المشرق العربي، في المجالات السياسية، والعسكرية، والاقتصادية، والاجتماعية ؛ على الرغم من كل ما اعترى تنفيذها من تعقيدات.

وقد تضمنت هذه الدراسة عدداً من الوثائق المهمة بالغات العربية والتركية والانجليزية، المتعلقة بالعقود الخاصة بتنفيذ الخطوط الحديدية في مصر وبلاد الشام.

وقد نشرت مؤسسة عبدالرحمن السديري الخيرية هذا الكتاب ضمن برنامج النشر ودعم الأبحاث، من تأليف باحثة من بنات الجوف.

اقتصاديات منطقة الجوف نموذج جديد للتنمية المحلية



المؤلف: د. محمد عبالعال صالح - خبير اقتصادي
عمل في وزارة الاقتصاد والتخطيط، والأمانة العامة لمجلس القوى العاملة بالمملكة العربية السعودية.
كما عمل خبيراً في منظمة الخليج للاستشارات الصناعية - الدوحة - قطر.
الناشر: مؤسسة عبدالرحمن السديري الخيرية

يقدم هذا الإصدار تطبيقاً للمفاهيم الجديدة للتنمية المحلية على منطقة الجوف، تلك المفاهيم التي تنادي بضرورة التكامل بين الموارد المتاحة للمنطقة، بطاقاتها وقدراتها الكامنة لتحقيق أهداف التنمية. وذلك بطرح مفهوم جديد، يستند على المشاركة الأفقية للفعاليات الرسمية والأهلية في إعداد وتنفيذ الإستراتيجية التنموية للمنطقة، ضمن إطار إستراتيجية التنمية.

قسّم المؤلف كتابة إلى جزأين تضمنا تسعة فصول خصّص الجزء الأول لمفاهيم ونظريات التنمية المحلية واستعرض تجربة التخطيط الإقليمي بالمملكة أما الجزء الثاني فقد خصص للحديث عن منطقة الجوف، والمؤشرات الاقتصادية والاجتماعية والبيئية، والقطاعات الصناعية والتجارية ونشاط القوى العاملة. وتضمن الكتاب فصلاً عن صناعة السياحة بالجوف وأسس تطويرها، وقدّم تصوراً للرؤية المستقبلية لمنطقة الجوف في ضوء الفرص وتحديات، واستعرض المؤلف أسس تحقيق الشراكة بين القطاعات الرسمية والأهلية بالمنطقة، التي من شأنها تمكين كافة الفعاليات من أداء أدوارها على الوجه الأمثل، وإطلاق الطاقات الكامنة فيها،بما يحقق أهداف التنمية المحلية. كما تضمن الكتاب ملاحق إحصائية حديثة، ورسومات بيانية توضيحية، تبرز مؤشرات النمو الاقتصادي بمنطقة الجوف.